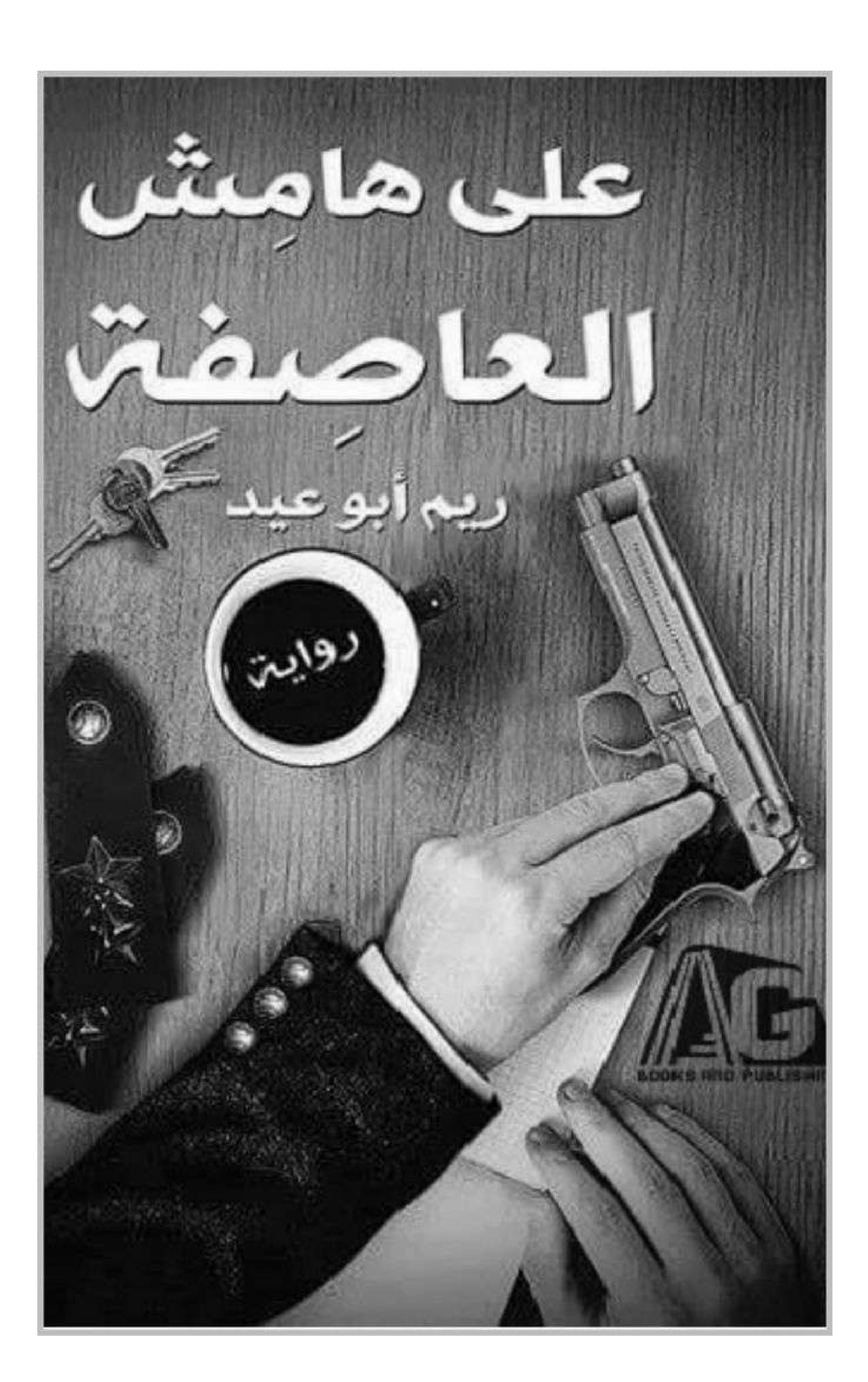
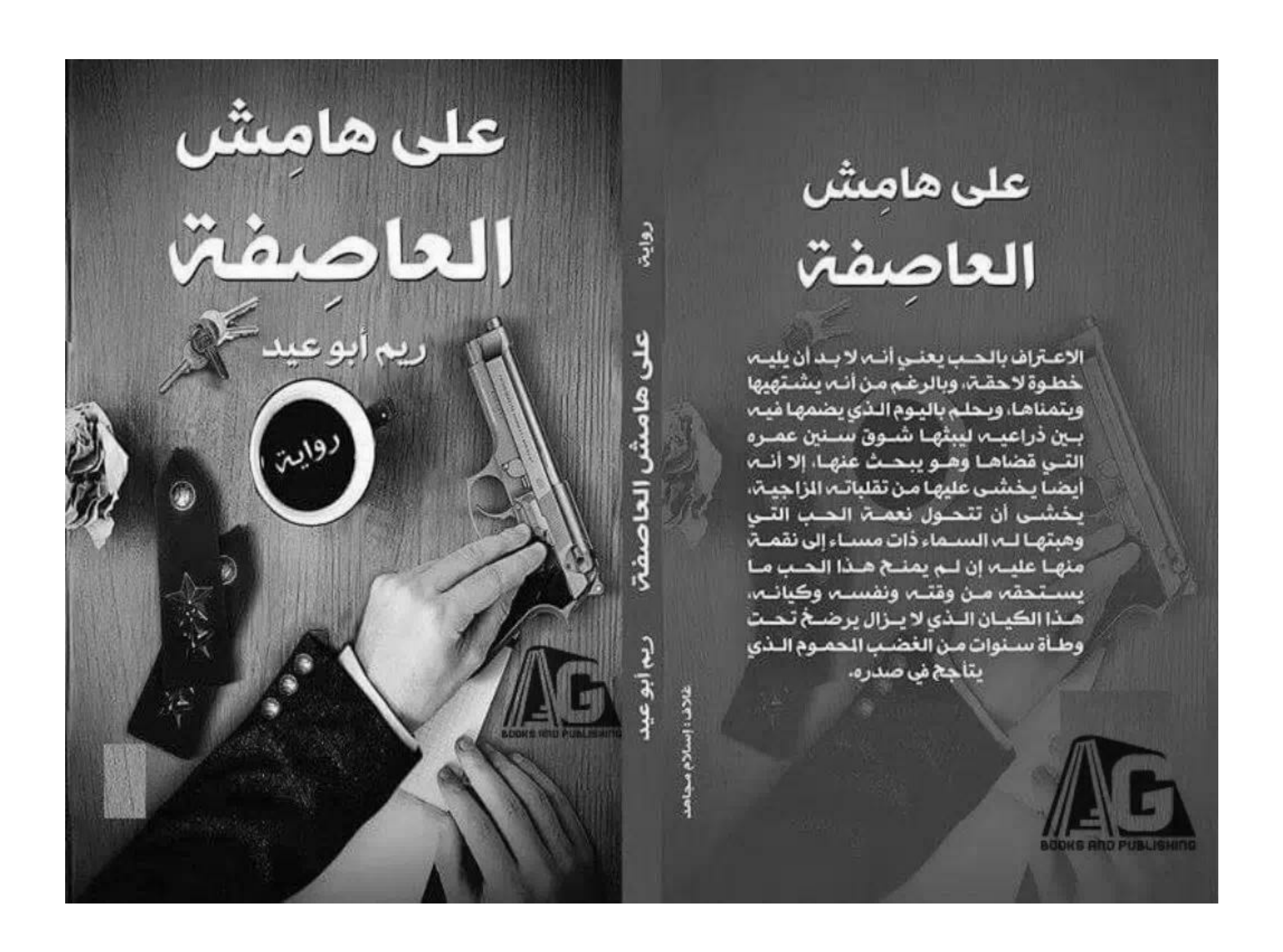
على هامشِ العاصفةِ

ريم أبو عيد

رواية

AG
BOOKS AND PUBLISHI


على هامِش
العاصِفة
ريم أبو عيد
رواية
BOOKS AND PUBLISHI


على هامِش
العاصِفة
ريم أبو عيد
رواية
على هامش العاصفة
رواية
ريم أبو عيد
غلاف: إسلام مجاهد
BOOKS AND PUBLISHING
على هامِش
العاصِفة
الاعتراف بالحب يعني أنه لا بد أن يليه
خطوة لاحقة، وبالرغم من أنه يشتهيها
ويتمناها، ويحلم باليوم الذي يضمها فيه
بين ذراعيه ليبثها شوق سنين عمره
التي قضاها وهو يبحث عنها، إلا أنه
أيضا يخشى عليها من تقلباته المزاجية،
يخشى أن تتحول نعمة الحب التي
وهبتها له السماء ذات مساء إلى نقمة
منها عليه إن لم يمنح هذا الحب ما
يستحقه من وقته ونفسه وكيانه،
هذا الكيان الذي لا يزال يرضخ تحت
وطأة سنوات من الغضب المحموم الذي
يتأجج في صدره.
BOOKS AND PUBLISHING

نوع العمل: رواية

اسم العمل: على هامش العاصفة

اسم المؤلف: ريم أبو عيد

الناشر: A G للنشر و التوزيع

الطبعة: الأولى 2018

تصميم الغلاف: عمرو سليمان

تفضلوا بزيارة موقعنا A G للنشر و التوزيع من خلال الضغط على الرابط التالى:

https://www.facebook.com/agpublishing

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالى:

a.gforpublishing@gmail.com



رواية

على هامش العاصفة

ريم أبو عيد

إن تشابة أحداث الرواية مع الواقع ليس من قبيل المصادفة ولكن من قبيل ذلك الواقع نفسه
فالرواية مستوحاة من أحداث حقيقية
وإن كانت شخصياتها من نسج خيالي
فإن التشابه بين هذه الشخصيات
وبين تلك التي على أرض الواقع
اقترفه قلمي عامدا معتمدا
مع سبق الإصرار والترصد

المؤلفة

إهداء الطبعة الأولى

إهداء أول
إلى وطني الغالي مصر.. دمت لي وطنًا..

إهداء ثانٍ
إلى أبطال مصر من رجال الجيش والشرطة
الذين سيعيدون إلى الوطن وجهه الجميل
وإلى أرواح شهدائكم.. شهداء الوطن الأبرار
لن ننسى ما حيينا جل تضحياتكم
من أجل حمايتنا وحماية هذا البلد
الذي فديتموه بأرواحكم الطاهرة

إهداء الطبعة الثانية

إلى أرواح كل شهداء الوطن الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ودافعوا عن أرضه الطاهرة ضد كل خائن وإرهابي.. ولا يزالون..

في زمن الحرب يصبح احتياجنا للحب
أقوى من حاجتنا للسلاح
رفيف سليم

نظل أنصافًا حتى نلتقي بالحب
فنكتمل به واحدًا صحيحًا
وليد سامي

في زمن الموت يبقى حبك حياة لقلبي
خالد يحيى

طوبى لغرباء هذا الوطن..
حازم صقر

بعض العشق وطن.. وبعض الكتابة وجع..
ريم أبو عيد

(1)

كان يجلس كعادته ممددًا ساقيه على المكتب.. اليوم هادئ على غير العادة.. وكأنه يمنحه بعض الوقت كي يسافر بخياله إليها مكافأةً له على إرهاقه في العمل الأيام الماضية.. أشعل سيجارة وأخذ ينفث دخانها بهدوء واستمتاع.. أغمض عينيه وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يتنهد وكأنه يزفر كل هموم عمره في تلك اللحظة مع دخان سيجارته.. ثم همس بصوت خفيض أشبه

بالهمس.. "رفيف".. ارتفع صوته شيئًا فشيئًا وهو يردد اسمها ويضحك ضحكة عالية منتشية وهو يطفئ سيجارته حين رن جرس هاتفه المحمول فالتقطه من على المكتب وهو ينظر للاسم الذي ظهر على شاشته.. "ماجي" ضغط على زر إنهاء المكالمة بلا اكتراث.. ثم أضاف رقمها إلى قائمة الحظر حتى لا تتمكن من الاتصال به مرة أخرى.. كان لا يزال يبتسم ويتطلع إلى تلك الصورة التي مازالت تتراءى أمام عينيه.. "رفيف".. ثم ضغط على زر الاتصال في هاتفه المحمول..

- وحشتيني..

بضع ثوانٍ وهو يسمع صوت أنفاسها ولكنها لم تجب..
فأردف قائلًا:

- ساكتة ليه؟

أجابته وهي تتنهد تنهيدة عميقة:

- ما أنت عارف بحب أسمع صوتك..

- بتحبي تسمعي صوتي بس..

- إنت عارف كمان إني مجنونة وعنيدة يعني أسلوب الغرور بتاعك ده....

قاطعها بنبرة حانية واثقة حتى يطفئ ثورتها قبل أن تشتعل..

- هو أنا أقدر أكون مغرور معاكي إنتي يامستبدة..

ضحكت ضحكة أنثوية ذات مغزى وهي تغمض عينيها وتتنهد وكأنها تتنفس الحب من صوته لكي تبقى على قيد الفرح..

- رفيف.. بجد وحشتيني.. وحشتني عينيكي.. هموت وأخدك في حضني.. أنا أجازة بكرة يعني اليوم كله سوا.. مش هقبل أعذار وموبايلك تقفليه خالص بكرة وإحنا مع بعض مش عايز حد ياخدك مني ولو دقيقة..
كانت تستمع إلى كلماته وهي لا تزال تبتسم ابتسامة حالمة قبل أن تجيبه بنبرة لا تخلو من التمرد الأنثوي..

- بيعجبني فيك ثقتك في نفسك ياعقرب!

- أنا بقى بيعجبني كل حاجة فيكي يا أسد.. وبكرة تكوني جاهزة الساعة 8 الصبح هعدي أخدك وهنطلع على إسكندرية نقضي اليوم هناك ونرجع.. سلام مؤقت..

أغلق الخط ولملم بعض الأوراق المتناثرة على مكتبه والتقط مفتاح سيارته ثم

اتجه ناحية الباب لمغادرة المعسكر.. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة والنصف عصرًا بقليل حين اصطدم بالنقيب "هاني سميح" وهويفتح باب المكتب لمغادرته.. كان الأخير وجهه ممتقعًا ويبدو عليه الانزعاج..

- مصيبة جديدة يا وليد بك الرائد ماجد مرقس انضرب عليه نار من شوية واتنقل مستشفى الشرطة في مدينة نصر.. وبين الحياة والموت..

ألقى "هاني" الخبر كقنبلة موقوتة وهو يلهث كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة مع تلك الكلمات المشؤومة..

صاح "وليد" غاضبًا وهو يركل الباب بقدمه..

- ولاد الكلب دول هيفضلوا يقتلوا فينا لغاية إمتى؟!
تجمع عدد كبير من أفراد المعسكر على صوته وسرى الغضب بينهم سريان النار في الهشيم.. ترك "وليد" الجمع وخرج مسرعًا من مكتبه متجهًا إلى المستشفى.. فماجد مرقس ليس مجرد زميل عمل ولكنه الوحيد الذي سانده في محنته التي تعرض لها منذ سنتين عندما حدثت مشادة كلامية بينه وبين واحد من الضباط الملتحين في ذلك الوقت والذين كان يدعمهم النظام الإخواني الحاكم آنذاك في إحدى مأموريات العمل التي تم تكليفه به وبسبب تلك المشادة كاد "وليد" يفقد عمله في العمليات الخاصة..

مقدم "وليد سامي" على مشارف الثالثة والأربعين.. وسيم وسامة ارستقراطية ملحوظة.. خمري اللون.. شعره أسود ناعم.. عيناه عميقتان وكأنهما نافذتان يمكن الإطلال منهما على أسرار الكون.. طويل القامة وجسده رياضي.. فهو لا يزال مواظبا على رياضتي الفروسية والسباحة رغم انشغاله الدائم والمستمر في العمل إلا أنه يحاول دائما أن يجد الوقت لممارسة رياضته المفضلة.. متقلب المزاج.. حاد الطباع إلى حد ما خاصة عندما يمس الأمر كبرياءه أو كرامته.. لا ينسى الإساءة بسهولة ولا يتسامح أيضا بسرعة.. مفعم برجولة طاغية.. الأمر الذي يجعله محط أنظار نساء كثيرات.. والذي يجعلهن أيضا محطات عديدة في حياته..

ذكريات كثيرة طافت بمخيلته وهو يقود سيارته.. ذكريات جمعته بماجد مرقس في العمل وفي الحياة.. زفر زفرة ضيق من الزحام المروري الخانق الذي أصبح سمة أساسية من سمات الشوارع في مصر على مدار اليوم.. وصل إلى مستشفى الشرطة بعد ساعة قضاها في الطريق.. كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء.. أسرع إلى استقبال المستشفى وسأل عن غرفة نقيب "ماجد".. أجابته موظفة الاستقبال بوجوم لا يخلو من مسحة حزن حقيقية..

- البقاء لله.. النقيب ماجد اتوفى بعد وصوله للمستشفى بنص ساعة.. وأهله كلهم هنا من ساعة مع الدكتور اللي بيكتب التقرير الطبي وبيخلص إجراءات

تصريح الدفن..

ظل شاردًا لدقائق وكأن الصدمة ألجمته فلم يعد يقوى على الكلام.. حاول أن يبدو متماسكًا بعض الشيء إلا أنه لم يستطع أن يمنع تلك الآهة المكتومة من الإفصاح عن أوجاع سنينه التي يحاول جاهدا تخطيها ونسيانها.. اتجه ناحية غرفة العناية المركزة والتي كان "ماجد مرقس" لا يزال راقدًا فيها لم تفارقه تلك الابتسامة الهادئة التي كان يتميز بها بين ضباط المعسكر.. كانت "سماء" تستند بيد على باب الغرفة وهي في حالة وجوم وعيناها معلقتان بالجسد المسجى على الفراش وتربت بيدها الأخرى على بطنها وكأنها تواسي جنينها الذي لم يكمل بعد شهره الثاني والذي كتب عليه القدر أن يأتي للحياة يتيم الأب.. وما إن رأت "وليد" حتى انهارت باكية وهي تقول بصوت متهدج..

- شفت عملوا إيه في ماجد يا وليد.. ليه بيعملوا فينا كده ولغاية إمتى؟ واللي في بطني ده ذنبه إيه يجي للدنيا مايلاقيش أبوه.. ذنبه إيه يتيتم من قبل ما يتولد.. ذنبه إن أبوه مسيحي ولا ظابط شرطة؟!

أغمض "وليد" عينيه في أسى وهو يربت على كتفها محاولًا تهدئتها ومواساتها بكلمات كان يعي تمامًا أنها فارغة من أي معنى.. فلم يكن بوسع أي كلمات أن تخفف عنها فجيعتها..

استأذن الطبيب في الدخول لغرفة العناية المركزة لإلقاء نظرة أخيرة على صديقه وزميله "ماجد".. وما إن دخل الغرفة حتى انحدرت دمعة من عينه رغما عنه كان يحاول حبسها حتى لا تفر منه هاربة أمام "سماء" أو أي شخص آخر.. كان دومًا يؤمن بأن دموع الرجل عزيزة.. وأن الرجل الحق لا يبكي مهما واجه من شدائد.. جلس على المقعد المجاور للسرير الذي ينام عليه الشهيد "ماجد" نومته الأخيرة وأمسك بيده وهو يعده بأن يثأر له..

- مش هسيب حقك يا ماجد وعد مني.. وولاد الكلب اللي عملوا فيك كده هجيبهم ولو كانوا فين..

ثم أجهش بالبكاء كما لم يبكِ من قبل.. وغادر الغرفة ليتابع مع أسرة "ماجد" الإجراءات اللازمة لدفنه ثم أجرى بعض الاتصالات مع بعض زملائه في المعسكر لسؤالهم عن الترتيبات اللازمة لجنازة الشهيد "ماجد مرقس"..

في طريقه للعودة لمنزله تذكر موعده مع "رفيف" في الغد.. فأرسل لها رسالة موبايل قصيرة.. "رفيف.. آسف مش حقدر أقابلك بكرة".. ثم أخذ يبحث في الأرقام المسجلة على هاتفه المحمول حتى وجد اسم "سحر" فضغط زر الاتصال.. وظل منتظرًا أن تفتح الخط وتجيبه حتى انتهى جرس المكالمة معلنًا أن ما من مجيب على الجانب الآخر.

عاود الاتصال مرة أخرى وقبل آن ينقطع جرس المكالمة جاءه صوتها حادًا كعادتها..

- أيوه يا وليد عايز إيه؟!

وقبل أن تسترسل في ذات الحديث الذي تُسمِعُه إياه كل مرة صرخ فيها بحدة.. وكأنه ينفث كل غضبه المكتوم من سنين نكد وخلافات منحته إياها ولا تزال..

- عايز أكلم ابني.. إنتي ناسية إنه ابني ولا إيه!

- لا إنت اللي على طول ناسي إن ليك ابن..

- سحر بقولك إيه مش فايق لك ولا فايق للقرف بتاعك ده.. اديني "شادي" أكلمه.. أنا متحمل قرفك ونكدك بس عشان خاطره إنما مش هتحمل أي حاجة بعد كده ولا هيفرق معايا حاجة تاني.. ولا هعمل حساب لعشرة كانت بيننا.. وابني هعرف أشوفه وأكلمه وقت ما أنا عايز..

لم تجبه هذه المرة ولكنه سمعها وهي تنادي على "شادي" بصوت عالٍ يغلفه الضيق والغضب..

- شادي تعال يا حبيبي بابي افتكر أخيرا إن له ابن وعايز يكلمه..
سمعت صوت "وليد" على الجانب الآخر من المكالمة وهو يصيح مهددا إياها..

- لو مصممة تسممي أفكار الولد من ناحيتي هسمم عيشتك كلها ولا هيهمني بقى أبوكي ولا عيلتك كلها.. وأظن إنتي عارفة كويس أنا ممكن أعمل إيه.. وعارفة كمان فضايح أبوكي كتير أد إيه!

وبعد لحظات قصار جاءه صوت "شادي" بريئا هادئا متلهفا..

- بابي وحشتني أوي هو أنا مش هشوفك.. مش بوحشك زي ما بتوحشني.. كل ما اسأل مامي وجدو عليك يقولوا مشغول.. هتفضى إمتى عشان أشوفك؟

هدأ غضب "وليد" عندما سمع الصوت الملائكي صاحب الستة أعوام.. وأجابه بنبرة حانية..

- إن شاء الله هتشوفني قريب يا حبيب بابي.. أنا آسف إني اتأخرت عليك.. أنا فعلا مشغول جدا.. بس هحاول أفضي نفسي وأشوفك.. وكان لازم أسمع صوتك النهارده لأنك وحشتني جدا.. خلي بالك من نفسك ولو احتجت أي حاجة كلمني.. بحبك.. سلام..
أنهى "وليد" المكالمة قبل أن يعيد "شادي" الهاتف إلى أمه فلم يكن يرغب في الاستمرار في الشجار معها بعد حديثه مع صغيره.. وزفر زفرة ضيق بعد أن أغلق الخط وأغلق الهاتف أيضا حتى لا يتلقى أية اتصالات على الإطلاق.. ثم أشعل

سيجارة ينفث فيها غضبه المحموم وهو يحادث نفسه..

- أنا إيه اللي كان خلاني أتجوز أصلا ما أنا كنت عايش مبسوط.. جواز ونكد ومشاكل وطلاق وابن مالوش ذنب في المشاكل اللي بين أبوه وأمه.. ومين عارف الدور عليّ إمتى أنا كمان مش يمكن أحصل ماجد قريب ويبقى اتكتب على شادي اليتم هو كمان..

وصل إلى منزله في مدينة الرحاب الذي انتقل إليه بعد طلاقه من "سحر" منذ حوالي خمس سنوات.. عندما أراد أن يبتعد عن زحام العالم خارج أسوار تلك المدينة.. ألقى نظرة خاطفة على شوارعها بعدما عبر من بوابة الدخول وزم شفتيه في سخرية محدثا نفسه..

- القرف بقى هنا كمان.. واضح إن القرف وراك في كل مكان يا وليد..

أصبحت شوارع مدينة الرحاب هي أيضا تضج بالزحام بعد أن وفد إليها اللاجئون من مختلف الدول العربية التي أصابتها مصيبة الربيع العبري كما كان يطلق هو على تلك الثورات التي اشتعلت الواحدة تلو الأخرى في منطقة الشرق الأوسط..

كانت الساعة قد قاربت على الحادية عشرة ليلا.. عندما فتح باب شقته وأضاء النور الخارجي في غرفة المعيشة وألقى بمفاتيحه على إحدى الطاولات الصغيرة ثم خلع حذاءه وقذفه بعيدا وكأنه يلقي به على كثيرين ممن يتمنى لو أن تواتيه الفرصة ليوسعهم ضربا بحذائه.. اتجه ناحية المطبخ وأخرج زجاجة مياه مثلجة حملها وذهب بها إلى الحمام.. خلع سترته وأفرغ الزجاجة على رأسه وهو يقف أمام المرآة ينظر إلى وجهه ودموع حبيسة في مقلتيه تأبى الفرار.. جفف شعره بالمنشفة ثم اتجه إلى غرفة النوم وألقى بنفسه على الفراش ظل محملقا في سقف الغرفة حتى راح في النوم من كثرة التعب والإجهاد الذهني والنفسي..

(2)

قرأت "رفيف" الرسالة بمزيج من الدهشة والضيق.. كانت قد اعتادت على مثل هذه الأمور من "وليد".. قاربا على السنة منذ أن تعارفا وهو لا يزال على هذي الحال.. يختفي فجأة كما يعاود الظهور فجأة بلا مقدمات بلا مبررات بلا أي أسباب تستطيع هي أن تفهمها.. أعادت قراءة الرسالة مرات ومرات وهي تمتم بضيق..

- تاني يا وليد.. أوك.. اعمل حسابك إنك مش هتلاقيني الأيام الجاية زي كل مرة..

رفيف امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها.. خمرية اللون متوسطة الطول

ممشوقة القوام.. عيناها بلون العسل المصفى لهما بريق مبهم لا تدري إن كان فرط ذكاء أم فرط جنون أم فرط تحدٍ للعالم من حولها.. وشعرها كموج البحر الهادر الذي يغمرك فلا تستطيع أمامه حيلة ولا تستطيع منه نجاة..

إنها امرأة استثنائية.. أنثى من نوع خاص.. تتسلل أنوثتها إليك دون أن تدري ومن حيث لا تحتسب.. وبدون سابق إنذار أو مقدمات تجد نفسك محاطا بوجودها كالهواء الذي تتنفسه.. عنيدة، متمردة على كل ما هو مفروض وحتمي.. تعتز بكونها امرأة وتختال بأنوثتها.. مطلقة منذ ما يقارب على الثمانية أعوام بعد زواج دام لمدة عام واحد لم يثمر عن أطفال ولكنه أثمر عن مشاعر مؤلمة تركت أثرا عميقا في نفسها.. ورغم قسوة التجربة ومرارتها إلا أنها سرعان ما تخلصت من كل هذه الذكريات وآلامها فعادت للحياة من جديد بعد طلاقها الذي حصلت عليه بعد معاناة لا تقل في قسوتها عن تلك التي عاشتها مع ذلك الرجل في كل يوم من أيام زواجها به.. تلك المعاناة التي بدأت من أول يوم زواج عندما اكتشفت أن رجولته معتلة.. والتي تفاقمت بمرور الأيام عندما تأكد لها أن الزوج في تلك الحالات لا يعوض امرأته ما ينقصها حبا وحنانا.. ولكنه يحاول أن يغطي على عيبه بعيوب أخرى في تعاملاته اليومية معها.. فبعد خروجها من دائرة تلك التجربة القاسية أقبلت على الحياة بتحدٍ لكل شيء فيها وبرغبة في النجاح في كل أمورها.. وكأنها هي الأخرى كانت تحاول أن تعوض ما ألم بها من خسارة في أيامها الماضية.. ولكنها بالرغم من ذلك لم تكن أبدا على استعداد لتكرار تجربة الزواج مرة أخرى..
انتقلت بعد طلاقها إلى شقة ورثتها عن أبيها في حي المهندسين تقع على مسافة ليست بالبعيدة عن نادي الصيد في الدقي والتي كانت عضوة به..

كانت الساعة لا تزال السابعة والنصف مساء عندما تلقت رسالة "وليد" على هاتفها المحمول.. ألقت الهاتف بعيدا عنها وهي تهز كتفيها بلا مبالاة وقد قررت أن تذهب إلى النادي لممارسة رياضتها المفضلة المشي في التراك..

ارتدت ملابسها الرياضية ووضعت هاتفها المحمول والتابلت الخاص بها في حقيبتها والتقطت سلسلة المفاتيح من على الكومود الملاصق لسريرها.. أغلقت باب الشقة بعنف وكأنها تصفع "وليد" الذي قررت ألا ترد على اتصالاته بعد اليوم ولا تعيره أي اهتمام على الإطلاق ثأرا لكرامتها ومداواة لكبريائها..

انطلقت بسيارتها بسرعة مناسبة، أدارت مشغل السي دي في سيارتها فانطلقت موسيقى ياني لتمنحها بعض الهدوء والسكينة.. ولتنسى بها "وليد" ولو لبعض الوقت.. ابتسمت ابتسامة ساخرة من نفسها..

- عايزة تنسيه يبقى متفكريش فيه مش تفكري نفسك كل شوية بيه بحجة إنك هتنسيه..
كان الطقس في ذلك اليوم معتدلا ملائما لرياضة المشي.. برغم تأخر الشتاء

الذي تعشقه ولكن لا بأس بالطقس في آخر يوم من أيام شهر آكتوبر.. وصاحت صيحة خافتة وكأنها تذكرت فجأة حدثا جللا..

- عيد ميلاد وليد بعد أربعة أيام.. يوم 4 نوفمبر.. نفس يوم عيد الحب..

ثم ابتسمت ابتسامة تشي بالتمني وهي تتخيل نفسها معه في ذلك اليوم يحتفلان احتفالا خاصا ليس بعيد ميلاده فقط ولكن بميلاد حكاية حب مبهمة جمعت بينهما.. ضحكت ضحكة خافتة وهي لا تزال في حديث ساخر مع نفسها..

- لا واضح فعلا إنك هتنسيه..

هزت رأسها علامة على استنكارها حالة التفكير المتواصل فيه والتي تعيشها قسرا منذ أن أشهر سيف عينيه على قلبها في إحدى الأمسيات..

وصلت إلى النادي في تمام الساعة الثامنة إلا ربع.. من حسن حظها لم تكن الشوارع مزدحمة اليوم.. رغم أنه يوم جمعة ولكن يبدو أن المصريين لم يعودوا يرحبون بالخروج من منازلهم في هذا اليوم كما كانوا من قبل بسبب استمرار مسيرات عناصر الجماعة الإرهابية الإخوانية كل جمعة ومحاولة إثارة الفوضى في الشوارع..

دخلت من بوابة النادي التي تقع في شارع مكة المكرمة وانتظرت قليلا السايس.. وهو يحاول أن يجد لها مكانا في موقف السيارات الخلفي لتصف فيه سيارتها.. لم تكن تمقت في حياتها أكثر من الانتظار.. اطفأت موتور السيارة وقررت أن تتصفح الأخبار على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك".. تسمرت عيناها على الخبر المنتشر في جميع الصفحات والذي تناقلته كل المواقع الإخبارية.. "مقتل النقيب "ماجد مرقس" بالعمليات الخاصة في مواجهة بين قوات الشرطة وأفراد من الجماعة الإرهابية أثناء مسيرة لمجموعة من العناصر الإرهابية بمدينة نصر"..

شهقت شهقة خافتة وصاحت بصوت خفيض وهي تضع يدها على فمها "وليد".. أخذت تبحث عن هاتفها المحمول في حقيبتها حتى وجدته فالتقطته بلهفة وجزع واتصلت به.. كان هاتفه مغلقا فاستبد بها قلق جنوني..

كان "وليد" قد حدثها عن "ماجد" من قبل وهو يروي لها بعض ذكرياته عن فض اعتصام رابعة المسلح.. وكيف أن "ماجد" أنقذ حياته من رصاصة كادت أن تخترق رأسه أطلقها أحد قناصة الجماعة الإرهابية من فوق سطح أحد المنازل أثناء عملية الفض..

أغمضت عينيها وهي تتمتم بخوف حقيقي..

- يا رب تكون بخير يا وليد..

كانت تعلم منذ آن رآته لأول مرة أنها على وشك الوقوع في الحب ولكنها كانت لا تزال تتشبث بآخر خيط من خيوط مقاومتها له ولتلك المشاعر التي تجتاحها كلما هاتفها أو التقى بها لقاء عابرا لا يعدو بضع دقائق يتناولان فيه القهوة في أي مقهى من مقاهي كوستا كوفي..
كانت شاردة حين سمعت دقات سعيد سايس الموقف على زجاج نافذة السيارة وهو يشير إليها بمكان خالٍ يمكن أن تصف فيه سيارتها.. صفت السيارة ثم ترجلت منها متجهة ناحية التراك.. وما إن وصلت إليه حتى أخذت تسرع الخطى في المشي ولم تشعر بنفسها إلا وهي تركض بلا توقف وكأنها تهرب من مخاوفها وقلقها.. ومن ذلك الحب أيضا الذي يتسلل إليها دون أن تدري ودون أن تحاول شحذ أسلحة مقاومتها للفرار منه قبل أن تقع أسيرة له.. تلك الأسلحة التي أشهرتها من قبل في وجه الكثيرين ممن حاولوا التقرب إليها وخطب ودها ومغازلة قلبها، ولكن الأمر يختلف تماما هذه المرة مع هذا الـ "وليد"..

لم تشعر كم من الوقت انقضى وهي تمارس رياضة الجري، حتى أحست بأنها لم تعد تقوى على التقاط أنفاسها.. فاضطرت للتوقف عن الجري وأخذت تحاول معاودة التنفس بانتظام.. ثم سارت بخطوات بطيئة ناحية أحد مخارج التراك.. وما إن خرجت حتى ألقت بنفسها على أحد المقاعد المنتشرة بمحاذاته والقريبة من مكتبة الأهرام التي تقع داخل النادي.. أسندت رأسها بين راحتيها والوجوم يبدو على وجهها.. كانت تنظر إلى الفراغ حين وجدته يقف أمامها بقامته الفارعة وبشرته السمراء وعينيه الثاقبتين وبادرها بصوته المفعم برجولته الصارمة..

- أخبارك إيه؟ وقاعدة كده ليه؟

أفاقت من وجومها ورفعت رأسها إليه والدموع تنهمر من مقلتيها.. وبعض خصلات من شعرها الأسود تتهدل بسكينة واستسلام فوق جبهتها..

- رفيف مالك فيه إيه؟

سألته بصوت تخنقه الدموع..
- لغاية إمتى!!

- مش فاهم هو إيه اللي لغاية إمتى؟، رفيف فيه إيه؟

قامت من على المقعد حتى أصبحت تقف أمامه وفي مواجهته مباشرة وقالت له وقد ارتفع صوت نحيبها..

- لغاية إمتى هيفضل الإرهاب يقتل فينا كل يوم ويحرق قلوبنا على الناس اللي بنحبهم.. لغاية إمتى هتفضل مصر مسروقة مننا.. ولغاية إمتى هنفضل نضحك على نفسنا وإحنا بنصبرها ونقول بكرة كل شيء يرجع زي ما كان.. لغاية إمتى يا حازم؟!

كان ينظر إليها وألف علامة استفهام ترتسم على وجهه تبحث عن إجابات مقنعة وحقيقية خلف ذلك الغيم الذي يغمر ملامحها.. فهي المرة الأولى التي يراها تبكي أمامه هذا البكاء المرير الأمر الذي أدهشه وآلمه في الوقت ذاته.. كل تلك الأسئلة كانت قد طرحتها عليه من قبل ربما مرة أو أكثر في أحاديث سابقة دارت بينهما.. ولكنها أبدا لم تكن بهذا التأثر أو الانهيار بسبب تلك الحوادث الإرهابية التي أصبحت تتكرر بصورة شبة يومية هنا أو هناك.. والتي تزايدت حدتها في الآونة الأخيرة خاصة في سيناء التي شهدت عملية إرهابية جديدة في كرم القواديس يوم 24 أكتوبر 2014 وراح ضحيتها ما يقارب من الثلاثين من عناصر القوات المسلحة المصرية.. كانت الأحداث الدامية تتوالى بصورة مفزعة تنبئ عن شر قادم مستطير.. قد لا يبقي ولا يذر إذا لم تتم مواجهته بحسم حقيقي.. ومنذ ذلك الحين تم إعلان حالة الطوارئ في شمال سيناء وبدأ الجيش المصري في شن هجوم مكثف على البؤر الإرهابية هناك لم تشهده المنطقة من قبل..

لم يتفوه بكلمة حتى أفرغت تماما ما في جعبتها من أسئلة وأفرغت ما في عينيها من دموع.. ابتسم لها ابتسامة هادئة وهو يجيبها إجابة مقتضبة واثقة..

- قريب يا رفيف.. قريب جدا إن شاء الله..

فهمت معنى إجابته المقتضبة والتي كانت تحمل بين طياتها أنه لا داعي للاسترسال في حديث كهذا هنا.. مسحت وجهها بأناملها وابتسمت له ابتسامة اعتذار راقية وهي تقول له بنبرة حاولت أن تبدو متماسكة بعض الشيء..

- هتعزمني على قهوة ولا أرجع أعيط تاني!

- ومين قالك إني ممكن أسمح لأي حاجة في الدنيا إنها تخليكي تبكي تاني يا رفيف.

أربكتها إجابته بعض الشيء ولكنها أخفت ارتباكها عنه وهي تلتقط حقيبتها من على المقعد.. لمحها ولكنه لم يعقب.. سارت بجانبه وهي تنظر إليه بطرف عينيها من آن لآخر وتبتسم فضحك ضحكة عالية دون أن يلتفت إليها فغرقت هي أيضا في ضحك متواصل لم تحاول أن تكتمه وكأنها تحاول أن تغطي بصوت أصداء ضحكتها على صوت سؤال مازال يتردد بداخلها.. أين تراه "وليد" الآن؟!

في الوقت الذي كان لا يزال قلقها على "وليد" يستبد بها كان إحساس الأمان الذي يبثه بداخلها وجود "حازم" يتسلل إلى نفسها شيئا فشيئا ليبدد كل مخاوفها وينتزع من داخلها إحساسها بالوحشة..

عقيد قوات مسلحة "حازم صقر" في الخمسين من عمره.. طويل القامة.. ملامحه دقيقة وحادة وكأنه يحمل وجها لأحد ملوك الفراعنة.. عيناه ثاقبتان كعيني عقاب.. صوته عميق.. حديثه في غالبيته جاد ومقتضب.. علاقاته الاجتماعية محدودة ومقتصرة على الأقارب وبعض زملاء العمل.. عسكري من الطراز الأول.. ملتزم في حياته.. يحترم الوقت ويعي جيدا قيمته.. كلمته قانون أو سيف بتار في بعض الأحايين يحسب جيدا متى تقال هذه الكلمة ولمن يقولها.. كل شيء عنده بمقدار.. كتوم إلى حد كبير.. قارئ جيد واسع الثقافة وتحديدا في العلوم العسكرية والاستراتيجية.. تدور حياته في فلك العمل والبيت..

حين تركته رفيف في ذلك اليوم بعد أن مكثت معه ما يقارب من النصف ساعة لا أكثر وظلت صامتة على غير عادتها.. ظل جالسا وحده ربما ساعة أو أكثر في صالون التراس القديم في النادي.. أشعل سيجارة من أخرى واحتسى ما يقارب من الأربعة فناجين قهوة.. وهو يفكر في أمر تلك المرأة التي اقتحمت حياته دون سابق إنذار.. لم يكن يؤمن من قبل أن ثمة صداقة يمكن أن تنشأ بينه وبين امرأة ما في يوم من الأيام.. ولكنها في شهر واحد فقط أضافت لقاموس معتقداته الكثير من المعاني التي لم يختبرها من قبل في حياته.. التقاها ذات نهار وهو يجلس بمفرده في مكانه المفضل في صالون التراس القديم في النادي يحتسي قهوته حين لمحها قادمة من الباب الأمامي للصالون والذي يفصل بينه وبين التراس الخارجي وعلى شفتيها ابتسامة تحيي بها جميع من يلوحون لها بأيديهم من أعضاء النادي.. توقفت قليلا للتحدث مع أحدهم كان يجلس بالقرب من المكان الذي يجلس به ثم غادرته للبحث عن مقعد فارغ.. أجالت بصرها في المكان الذي كان يكتظ برواد النادي في ذلك الوقت من اليوم.. حين لمحته جالسا.. اتجهت إليه وعلى وجهها ترتسم علامات دهشة وكأنها تريد أن تتحقق من أنه هو بالفعل.. وسألته بنبرة لا تخلو من الفرح الطفولي..

- عقيد حازم صقر؟

أجابها بتحفظه المعتاد..

- أيوه أنا يا فندم..

لم تتمالك نفسها من الفرح الحقيقي وقالت له بامتنان صادق وعميق..
- إنت بطل.. إنت حقيقي بطل.. شكرا بكل اللغات وبكل معاني الشكر..

ثم استأذنته في الجلوس معه لبضع دقائق.. فلم يستطع الرفض رغم أنه لم يكن يرحب بأحد يقتحم عليه خلوته مع نفسه التي اعتاد عليها منذ وقت طويل في هذا المكان.. جلست بتلقائية أثارت استغرابه وهي مسترسلة في حديث طويل عن امتنانها له ولكل ما قام به من أجل حماية مصر في الثلاث سنوات

المنصرمة.. ترك لها زمام الحديث دون أن يحاول مقاطعتها لكي يقيم تلك الشخصية التي أمامه.. إحدى عاداته العسكرية التي لم يستطع قط التخلي عنها في علاقاته الاجتماعية.. حتى انتهت من حديثها الذي استغرق ربما خمس دقائق كاملة.. ثم استأذنته فجأة في الانصراف كما استأذنته بغتة في الدخول إلى عرينه.. أفاق من ذهول الموقف وهو يكاد يشك بأن ما حدث لم يكن سوى حلم يقظة ربما جادت عليه وحدته به في وضح النهار.. ثم طفق يبحث عنها بعينيه حتى يتأكد أنها واقع ملموس يمشي على الأرض كسائر البشر من حوله.. لمحها وهي تختفي عن أنظاره حتى غابت تماما في الأفق، ابتسم ابتسامة رضا فقد أدرك أن هناك من يقدر حقا ما بذله من جهد ووقت في سبيل هذا الوطن على مدار ثلاث سنوات عجاف كاد الوطن أن يتحول إلى مقبرة جماعية كسائر دول المنطقة لولا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. أطفأ حازم سيجارته في المنفضة.. وألقى نظرة خاطفة على ساعة يده فوجدها تشير إلى العاشرة والنصف مساء.. أمسك هاتفه المحمول وضغط على زر الاتصال وجاءه صوتها وهي تجيب عليه مجهدا وكأنه عاوده البكاء من جديد لبعض الوقت.. كاد أن يسألها عن حقيقة الحدث الجلل الذي تسبب في هطول دموعها ولكنه تراجع في آخر لحظة لأنه أدرك أنها لو كانت تود البوح لفعلت عندما كانا سويا منذ سويعات قليلة.. وبدلا من معاودة سؤالها عن سبب بكائها بحث عن مبرر منطقي لاتصاله فلم يجد مبررا معقولا سوى الاطمئنان على أنها وصلت البيت بالسلامة.. أجابته بنفس النبرة المنهكة..

- الحمد لله وصلت وهحاول أنام..

أمام صوتها المتعب والذي يشي بما لا يقوى قلبها على البوح به لم يستطع أن يكبح جماح فضوله أكثر من ذلك وسألها بلا تردد وبحسم كمن لن يقبل عدم الإجابة كإجابة..
- أنا عايز أعرف مالك فيه إيه النهارده.. أول مرة أشوفك في الحالة دي.. أكيد فيه حاجة وحاجة كبيرة كمان اللي تخليكي بالمنظر ده.. ومش مقتنع إن السبب أي حاجة من اللي إنتي قلتيها في النادي.. يا ترى ينفع أعرف السبب الحقيقي ولا أبقى كده بسأل سؤال مش من حقي؟!

ساد صمت بينهما لبضع ثوانٍ ثم قطعته هي بقولها..

- أنا فعلا محتاجة أتكلم معاك لأني حاسة نفسي تعبانة من كل حاجة.. هتقدر تكون موجود إمتى على فيس بوك ونتكلم على الشات أفضل.. حاجات كتير يمكن منقدرش نقولها وإحنا بنتكلم بس بنقدر نقولها بالكتابة..

كانت تحاول أن تمنح نفسها بعض الوقت لتستعيد ترتيب أفكارها حتى لا تضطر إلى الخوض في أمر حكاية حب مبتورة لا تريد الإفصاح عنها..

نظر إلى ساعة يده مرة ثانية ثم أجابها..

- ربع ساعة وأكون موجود معاكي على "فيس بوك"..

فأجابته أنها ستنتظره ولن تخلد إلى النوم كما كانت تنتوي.
غادر حازم النادي متجها إلى بيته لكي يتمكن من الحديث إليها كما اتفق معها..

عندما عادت هي إلى بيتها في مساء اليوم الذي التقت فيه "حازم صقر" لأول مرة أخذت تبحث عن اسمه على "فيس بوك" إلى أن وجدته فأرسلت له طلب صداقة ورسالة تذكره بنفسها..

"أنا رفيف اللي قابلتك الصبح في النادي النهارده.. أتمنى تكون فاكرني وأتمنى كمان تقبل صداقتي وأكيد أي حد في مصر يسعده جدا تكون من أصدقائه ويعتز بصداقتك كمان".

عندما قرأ رسالتها في ذلك اليوم لم يعقب عليها ولم يرسل لها ردا ولكنه فقط اكتفى بقبول الصداقة.. وبمرور بالوقت وجدها تتسلل إلى عالمه.. حتى باتت صديقة مقربة إليه دون أن يدري كيف ومتى ولماذا هي تحديدا دون الأخريات اللاتي حاولن كثيرا التودد إليه بعد أن شاهدنه في حلقات ذلك البرنامج التليفزيوني الشهير وهو يتحدث عن المؤامرة التي تعرضت لها مصر ويسرد الحقائق التي تدين كل من شاركوا في التآمر على الوطن..

(4)

دخلت رفيف على حسابها الخاص على "فيس بوك".. تصفحت ما كتبه أصدقاؤها وما كتبته بعض الصفحات من أخبار وأحداث عن اليوم.. هالها ما قرأته في بعض التعليقات لبعض الأشخاص على صفحات عديدة عن حادثة النقيب "ماجد مرقس".. البعض يترحم عليه كما يترحم على جميع شهداء الوطن ويدعون له بالمغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض.. والبعض الآخر ينعته بالكافر ويكفر كل من يطلب له المغفرة ويدعون له الله أن يتقبله مع الصديقين والشهداء.. وكأن ما كفاهم الصراعات التي تدور على أرض الشارع فحولوا صفحات "فيس بوك" أيضا إلى ساحة معركة يستخدم فيها كل طرف جميع أسلحته المباحة من الكلمات والمحرمة إنسانيا وأخلاقيا من السباب والشتائم والتكفير والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور ممن نصبوا أنفسهم أوصياء على الله وادعوا زورا وبهتانا امتلاكهم مفاتيح الجنة والنار..

كانت تتابع ما يكتبه الجميع ونبضات قلبها تتسارع حتى شعرت وكأنه يكاد يقف تماما عن النبض معلنا رفضه لهذا الجحيم المستعر في كل مكان..
كادت تغلق حسابها نهائيا على "فيس بوك" ولكنها تراجعت عن هذه الفكرة وقررت المواجهة.. إذا كانت هذه الصفحات اللعينة هي التي أطلقت شرارة المؤامرة على الوطن العربي بأكمله فلنحارب من تآمروا علينا بنفس سلاحهم..

ولنشهر في وجوههم كلماتنا المتفائلة بالانتصار عليهم وعلى مؤامرتهم وإرهابهم..

كتبت منشورا تنعي فيه النقيب "ماجد مرقس"..

"النقيب ماجد مرقس، إلى جنة الخلد يا شهيد"..

قفز "وليد" إلى ذهنها فجأة وكأنها في اللاوعي كتبت هذا المنشور ليس فقط لتنعي به "ماجد" وتتحدى به أصحاب الفكر التكفيري الذين انتشروا في جسد الوطن كالسرطان الخبيث.. وإنما لتبحث به عن "وليد" أيضا الذي كان هاتفه المحمول لا يزال مغلقا.. ولكن لا أثر له على "فيس بوك".. دخلت على صفحته الخاصة فوجدت أن آخر منشور كتبه منذ 24 ساعة.. المنشور الذي قرأته وفهمت أنه رسالة إليها هي.. "قد تغدو امرأة يا ولدي يهواها القلب هي الدنيا".. كلمات من قصيدة لنزار قباني.. اكتفت بالتعليق عليها بوجه مبتسم فلم تكن من ذلك النوع من النساء الذي يسمح لمرتادي "فيس بوك" الاطلاع على خصوصياتها وما من شيء أكثر خصوصية وأكبر خصوصية من مشاعر حب لا تزال في مهدها تتأرجح بين الشد والجذب.. وعلاقة عاطفية بين المد والجزر لم تتضح ملامحها بعد ولم تستقر على حال..

إذن لم يظهر "وليد" على "فيس بوك" مطلقا منذ الأمس.. ورغم جميع هواجسها التي تقافزتها كأمواج عاتية.. إلا أن هناك صوتا داخليا يطمئنها أنه بخير على الأقل لا يزال على قيد الحياة.. لقد أرسل لها رسالة على الهاتف المحمول بعد وقوع الحادثة.. أي أنه لم يكن بصحبة "ماجد" أثناء مقتله.. كما أن الخبر المنشور عن مقتل "ماجد" أثناء مداهمته إحدى البؤر الإرهابية لم يذكر اسم "وليد".. تفاصيل الخبر عن "ماجد" وحده الذي تلقى الرصاصة وهو يحاول حماية أحد زملائه عندما بدأ الإرهابيون المختبئين بالمكان الذي داهمته القوة الأمنية في إطلاق وابل من الرصاص على أفرادها.

ويستمر الموقع في سرد بعض التفاصيل عن النقيب "ماجد" الذي كان حديث عهد بالزواج منذ عدة أشهر قليلة.. وعن إصابة أربعة أفراد آخرين من قوة المداهمة وهم ملازم أول في حالة حرجة وثلاثة عساكر إصاباتهم ما بين المتوسطة والطفيفة.. وقد ألقت قوات الأمن القبض على عدد من الإرهابيين في موقع الحادث.. بينما تمكن أحدهم من الفرار وهو القيادي البارز في الجماعة الإرهابية والملقب بأبي سفيان الأنصاري والتي كانت مجموعته قد أعلنت منذ أسابيع عن عزمها على المشاركة فيما أسموه الثورة الإسلامية في مصر والتي حددوا لإشعالها يوم الجمعة الموافق 28 نوفمبر 2014..

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة منتصف الليل ولم يظهر "حازم" بعد.. كانت على وشك أن تغلق حاسوبها المحمول وتخلد للنوم حين وجدت منه

رسالة يعتذر فيها عن تأخره لطارئ ما قد حدث في طريق عودته للمنزل.. لم تكن لتسأله ما هو هذا الطارئ.. فبرغم الصداقة التي جمعت بينهما.. إلا أنها لم تحاول قط التطفل على ما لا يرغب هو في الحديث عنه أو البوح به.. كانت تحاول فقط استيعاب ما في شخصيته من بعض الغموض أو التحفظ.. ولم يكن الأمر يزعجها في شيء ولا يمثل أيضا أي عائق من أي نوع أمام علاقة الصداقة التي تربطها به..

أجابت رسالته بوجه مبتسم ثم أردفت قائلة..

- ولا يهمك.. أنا كنت بتابع أخبار آخر عملية إرهابية..

ثم ألحقت جملتها بوجه حزين..

سألها عما بها.. وعن حالة الإحباط واليأس التي لم يعتد أن يراها عليها من قبل..

كانت تكتب وتمحو ما كتبته ظلت بضع دقائق على هذه الحال.. وفي النهاية، كتبت له..

- يمكن من اللي بيحصل.. من وقت ما عرفت خبر استشهاد النقيب "ماجد مرقس: النهارده وأنا مخنوقة من كل حاجة..

أرسل إليها الرد علامات تعجب متتالية.. أرسلته له وجها ضاحكا هذه المرة.. ثم كتبت..

- أفهم من كده إيه يعني؟

- إنتي اللي بتحاولي تفهميني إيه! إن كل اللي إنتي فيه ده عشان شهيد النهارده؟ طب ما كل يوم فيه شهيد.. إيه الجديد النهارده؟!

ارتبكت وهي تقرأ كلماته فهي تعلم أنه محق تماما فيما يقوله.. "ماجد مرقس" ليس أول شهيد ولن يكون الأخير.. ولكنها أبدا لن تبوح بسر قلبها الذي أصبح "وليد" يحتل كل شبر فيه بين عشية وضحاها.. كما أنها لن تتمكن من شرح مشاعرها المبهمة لحازم.. فهي نفسها لا تستطيع تفسيرها أو تحديد هويتها أو مداها.. فكرت في رد مقنع تكتبه له..

- معاك حق بس اللي مخليني في الحالة دي الكلام اللي كتبوه تجار الدين والدم عن ماجد والفتاوى المنتشرة منهم على صفحات "فيس بوك" بعدم جواز الترحم عليه لأنه مسيحي.. وتكفيره كمان والحكم عليه إنه من أهل النار..

- وإيه الجديد يا رفيف ما هم بيكفرونا كلنا.. بيكفروا حتى المسلمين.. بيكفروا جيش بلدك نفسه.. وبعدين هو حد فينا هيدخل الجنة أو النار بقرار منهم.. الجنة والنار صاحب القرار لدخولهم هو الله وحده الذي لا شريك له..

- معاك حق في الكلام ده كمان.. يمكن اللي آنا فيه ده من تراكم الوجع من كل اللي حصل في مصر ولسه بيحصل..

- كلنا حاسين بنفس الوجع يا رفيف ويا نسيب الوجع يهزمنا أو نتحداه ونهزمه إحنا.. مش ده كان كلامك ليا لما في يوم قلتلك إني محبط من كل حاجة وإني كمان تعبت من كل حاجة..
وقبل أن تكتب ردا عليه.. رن هاتفها فوجدته اسمه على شاشة الهاتف..

- أنا قلت أكلمك لما تروقي شوية.. وحاسس إنك روقتي خلاص..

أجابته بصوت هادئ..

- الحمد لله شكرا لاهتمامك ولذوقك يا حازم.

- لا شكر على واجب يا رفيف ومتنسيش إنك في يوم قويتيني ورجعتيني أحس إن الدنيا لسه بخير..

- ومتنساش إنك في يوم رجعتني أحس بالأمان من تاني لما عرفت إن فيه رجالة في مصر كانوا طوال الوقت بيحموها وبيحموا أهلها..

أنهى مكالمته معها بعدما اطمأن عليها فهي بالنسبة له لم تكن مجرد امرأة أو صديقة مقربة ولكنها كانت نموذجا فريدا من الناس لم يصادفه من قبل في حياته.. معزوفة موسيقية ناعمة وقوية في الوقت ذاته.. لوحة فنية متناغمة الألوان.. كائن يدعو إلى التأمل في إبداع الخالق.. قصيدة تستحق قراءة ما بين سطورها والوقوف على معانيها المبطنة.. كانت وجها آخر للحياة لم يختبره من قبل..
أما هي فقد أطفأت حاسوبها المحمول وإضاءة غرفتها ثم استلقت على فراشها وهي تعيد على ذاكرتها كلماته التي أضاءت لها عتمة أفكارها من جديد.. وبيد مرتعشة التقطت هاتفها المحمول لترسل ردا لوليد.. "البقاء لله.. ابقى طمني عليك".. وضغطت زر الإرسال.. ثم أغمضت عينيها.

كانت الساعة توشك على الحادية عشرة صباحا عندما استيقظ وليد.. التقط هاتفه المحمول من على الكومود الملاصق لسريره وأعاد تشغيله.. أضاءت شاشة الهاتف بعدما أعلنت الموسيقى الصادرة منه عند التشغيل أنه لا يزال على قيد الخدمة.. حاول أن يتعرف على التوقيت من الساعة الموجودة على شاشة الموبايل.. ولكنه كان لا يزال نصف نائم عندما فجأة أعلن الهاتف عن وصول العديد من الرسائل دفعة واحدة.. رسائل نصية ورسائل صوتية ومكالمات فائتة.. وكأنه لا يوجد هاتف محمول على وجه الكرة الأرضية سوى هاتفه تفرغ عليه شبكات المحمول حمولتها عليه..

هاله عدد الرسائل.. ولكن ما هاله أكثر هو عدد المكالمات الفائتة.. عشرون رسالة بينها ثلاث رسائل صوتية وأربعون مكالمة فائتة..

أخذ يقلب في الرسائل والأرقام التي حاولت الاتصال به.. وهو يفرك عينيه بقوة.. تأكد من الساعة التي وجدها أخيرا على شاشة المحمول أن الوقت تجاوز الحادية عشرة بخمس دقائق..
- يااااه أنا نمت كل الوقت ده!!

ثم تذكر أنه أغلق الهاتف منذ أكثر من خمس عشرة ساعة متواصلة.. هز رأسه علامة على التعجب والسخرية!

- على كده أنا لو قفلت الموبايل أسبوع الحرب العالمية التالتة هتقوم.. هي الناس دي كلها كانت عايشة إزاي قبل الاختراع المزعج ده..

ثم بدأ في قراءة الرسائل واحدة تلو الأخرى..

هاني سميح: "إنت فين يا سيادة المقدم قلقتنا كلنا عليك بنحاول نتصل بيك وموبايلك مقفول على طول".

هاني سميح: "جنازة النقيب ماجد مرقس النهارده الساعة 2 الضهر في كنيسة السيدة العذراء والشهيد مار مينا في مدينة نصر، واللواء فؤاد عوني رئيس القطاع حيحضرها لازم تكون موجود".

هاني سميح: "موبايلك لسه مقفول.. أنا كده مش فاهم هتيجي تحضر صلاة التجنيز والدفن ولا مش هتيجي، ولا إيه؟ أنا مستني ترد عليا".

رفيف: "البقاء لله.."... لم يفتح الرسالة لقراءتها كاملة وتخطاها متعمدا إلى الرسالة التي تليها..

رسالتان صوتيتان فارغتان والثالثة جاءه صوت "شادي" وهو يقول له بصوته

البريء:

"بابي أنا اتصلت بيك من موبايل جدو من غير ما مامي تعرف عشان أقولك متزعلش وأقولك كمان إني بحبك أوي، إنت أحلى أب في الدنيا"..

استمع إلى رسالة "شادي" أكثر من خمس مرات وفي كل مرة يقبل الهاتف ويضمه وكأنه يضم صغيره إليه.. زم شفتيه بتحدٍ واضح وهو يتمتم بتصميم جاد..

- أفضى لك بس يا سحر وهخليكي إنتي وأبوكي تلعنوا اليوم اللي شفتوني فيه..

شرد بذهنه وهو لا يزال يمسك بالهاتف بين يديه.. تذكر كيف ألقت "سحر" بشباكها حوله فقط لكي تخطفه من "دينا" صديقتها في نادي الجزيرة والتي كان يصادقها هو آنذاك..

"سحر التهامي" ابنة رجل الأعمال المعروف "سعد التهامي" خريجة الجامعة الأمريكية كلية إدارة أعمال.. الابنة الوحيدة والمدللة للتهامي.. تصغر وليد بثلاثة أعوام.. منذ أن رأته بصحبة "دينا" في نادي الجزيرة ولم يعد لها هم سوى أن تحصل عليه مهما كان الثمن.. لم تتغير شخصيتها كثيرا بعدما كبرت عنها في طفولتها.. فكل ما تطلبه أوامر مطاعة.. ما عليها سوى أن تتمنى و"سعد التهامي" يحقق لها جميع ما تتمناه.. أفرط في تدليلها بعد وفاة أمها في حادث سيارة مروع عندما كانت هي تبلغ من العمر خمس سنوات.. لم يتزوج بامرأة أخرى حتى لا تشارك ابنته به أو بأمواله وشركاته.. ولكنه لم يكن قديسا كذلك فهو كان ولا يزال معروفا بعلاقاته النسائية المتعددة..

أفاق "وليد" من شروده على صوت جرس الهاتف.. كانت الشاشة تضيء باسم "أحمد حسن" زميله في القطاع وصديق طفولته.. قضيا طفولتهما معا في حي الدقي والتحقا معا بمدرسة الحرية للغات التي تقع في شارع الجيزة ثم التحقا معا بأكاديمية الشرطة..

كان اختيار "وليد" لأكاديمية الشرطة نابعا من حبه لعمه اللواء "نبيل سامي" الذي كان يعمل بأمن الدولة آنذاك.. أما "أحمد" فبالرغم من حصوله على مجموع يؤهله للالتحاق بكلية الهندسة.. إلا أنه فضل أن يبقى ملازما لصديق طفولته في الدراسة الجامعية فالتحق هو الآخر بأكاديمية الشرطة وعملا معا في القوات المدربة لمكافحة الإرهاب.. والمعروفة بالعمليات الخاصة في قطاع الأمن المركزي.

- إيه يا بني فينك كل ده؟ باتصل بيك من إمبارح.. اتصلت بيك يمكن أكتر من 10 مرات وبعتلك رسالتين ولا حس ولا خبر.. كنت غطسان فين الوقت ده كله؟

أجابه "وليد" وهو لا يزال يتثاءب..

- كنت نايم في البيت..

- نايم كل ده؟ ليه..

قاطعه "وليد" بضجر..

- أيوه كنت نايم واختصر يا أحمد عشان مش فايق لك.. أنا صاحي أصلا عفاريت الدنيا بتنط قدام وشي..

أدرك "أحمد" أن صديقه يمر بإحدى حالاته المزاجية العاتية التي تنتابه من حين لآخر.. والتي اعتادها منه على مدار سنوات صداقتهما الطويلة..

- طيب من غير ما تتعصب.. اصحى وفوق كده عشان الناس كلها مستنياك تحضر جنازة الشهيد ماجد ولا مش ناوي تيجي؟

- هروح على الكنيسة مباشرة هاني بعتلي رسالة بمكان صلاة التجنيز.. أشوفك هناك.. سلام..

أنهى المكالمة وهو يحاول أن يلملم شتات أفكاره المبعثرة واستجماع قواه المنهكة لكي يتمكن من النهوض من الفراش ويبدأ الاستعداد للذهاب إلى جنازة "ماجد مرقس".. كان وهو يغادر الفراش لا يزال يقلب في رسائل الهاتف التي وردت إليه حين لمح اسمها.. "مروة".. ابتسم وهو يقرأ الرسالة بعين نصف مفتوحة.. وهو يفرد ذراعه الأخرى في الهواء ليرخي عضلاته التي تيبست من طول ساعات النوم..

"هاللو يا وحش إنت فين كل ده اتصلت بيك كتير ولما لاقيت موبايلك مقفول قلت ابعتلك رسالة عشان أقولك تعمل حسابك يوم عيد ميلادك هنسهر سوا للصبح.. هعملك بارتي يجنن أنا وإنت والحب تالتنا.. موووا".

انفجر ضاحكا بعدما أنهى قراءة الرسالة وقال وهو يملأ رئتيه بالهواء..

- هو إنتي لسه عايشة يا بنت الإيه!

اتجه إلى الحمام وخلع ملابسه وألقى بها بلا اكتراث فوق كومة من الملابس المتسخة التي لم يحن موعد فرزها الأسبوعي ليحدد أي منها سيرسله للتنظيف الجاف وما سيحمله إلى بيت والدته لتتولى أخته الصغرى مهمة غسله وكيه.. وقف تحت الدش وأغمض عينيه مستمتعا بالماء الساخن وهو ينساب على رأسه وجسده محاولا استعادة نشاطه الذهني والبدني من جديد..

أطلق ضحكة استهزاء عالية وهو يتذكر اليوم الذي كادت فيه "سحر" تسقط

مغشيا عليها وهي تقرأ الرسالة التي آرسلتها له مروة على "هاتفه" من رقم مجهول بناء على اتفاق بينه وبينها..

"أنا واحدة حضرتك متعرفنيش يا حضرة الظابط بس محتاجة تساعدني أروح أعمل محضر في حماك سعد بيه التهامي اللي وعدني بالجواز وبعد ما غرر بيا بيتهرب مني، بعد ما عرف إني حامل منه".

في ذلك اليوم ألقى بهاتفه في وجه "سحر" وهو مقطب جبينه ويصيح منفعلا..

- إيه رأيك يا بنت الحسب والنسب في فضايح أبوكي اللي مالهاش أول من آخر.. وطبعا أنا مقدرش أشارك في جريمة زي دي ومعنديش اختيارات غير إني أتدخل يا إما أعقلها أو أوديها تعمل محضر.. لأني مش حسمح إنها تعمل لي أنا كمان فضايح وتقول إنها استنجدت بيا وأنا مهتمتش عشان أغطي على فضايح حمايا.

كانت "سحر" على ثقة تامة من أن "وليد" بالفعل لم يكن من ذلك الصنف من الضباط الذين يمكن أن يستغلوا نفوذهم أو مناصبهم للتعدي على الآخرين أو سلب حقوقهم.. الأمر الذي كانت تعتبره نوعا من الخيابة من وجهة نظرها.

أجابته حينها بانكسار وهي ساهمة..

- طيب وإيه العمل في المصيبة دي يا وليد؟

أجابها وهو لا يزال عاقدا حاجبيه وقد انخفض صوته مفتعلا الجدية في التفكير..

- لازم أقعد مع أبوكي وأفهم منه الحكاية وأكلم الست دي وأعقلها وأحل الموضوع من غير فضايح، في الأول وفي الآخر أبوكي ده يبقى جد ابني..

كان يقول هذه الكلمات وهو في قرارة نفسه يود لو أن يلقي بأبيها في الجحيم بنفسه.. ساعدته تلك الرسالة كثيرا آنذاك في أن تتم إجراءات الطلاق كما أراد هو لا كما أراد "سعد التهامي" وابنته حين بدأته تهدده بالطلاق إن لم يكن في استطاعته تلبية جميع متطلباتها المادية..
كانت "مروة" في ذلك الوقت لا تزال تجمعها به علاقة صداقة من ناحيته هو بعد أن وجدت هي بغيتها في ثري عربي قررت أن تتزوجه وظلت المرأة الوحيدة التي يعتبرها مستودع أسراره النسائية.. كانت العلاقة بينهما دائما ما تقف على أعتاب الوقت الذي يقضيانه معا في السهرات الخاصة مع شلة الأصدقاء المشتركين.. أو الساعات التي يقضيانها معا في الفراش في شقتها.. وبالرغم من أن علاقته بها كانت تتعدى حدود الصداقات النسائية الأخرى إلى ممارسة الحب كلما أراد هو.. إلا أنه أبرم معها اتفاقا معلن على أنه لا حب.. لا مشاعر جادة في تلك العلاقة.. ولا التزامات اجتماعية من أي نوع..

قاد "وليد" سيارته في طريقه للكينسة لحضور صلاة التجنيز ومراسم جنازة "ماجد مرقس".. شغل راديو السيارة وأخذ يقلب في محطاته عله يجد أي أغنية مبهجة تؤنس وحدته في الطريق.. ولكن ما من أغنيات في هذه الساعة من اليوم.. كانت الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا.. ولا تزال نشرات الأخبار هي المسيطرة على جميع المحطات الإذاعية.. استشهاد أربعة مجندين في هجوم إرهابي على كمين برفح.. إصابة أمين شرطة وخمسة مواطنين في انفجار قنبلة بدائية الصنع في ميدان رمسيس.. حلف الناتو يعرب عن قلقه إزاء الهجمات الإرهابية التي تشنها "داعش" في العراق.. اشتباك بين المقاومة في كوباني وبين مسلحي تنظيم "داعش" أسفر عن مقتل أحد أعضاء التنظيم وإصابة العشرات من عناصر المقاومة.. مصرع العشرات في حريق بـ......

- إيه الغم ده كله على الصبح كده..

قالها بضيق قبل أن يضغط زر الإطفاء ليعود الراديو إلى صمته المطبق من جديد.. انتهز فرصة وقوفه في إشارة مرور فالتقط الهاتف المحمول من على المقعد المجاور له للاتصال بأحمد حسن وسماعة الهاتف اللاسلكية مثبتة في إحدى أذنيه.. أغلق نافذة سيارته وهو يستمع إلى النغمة الجديدة مقطع من أغنية - "آه ونص" للمطربة نانسي عجرم والتي اختارها أحمد لتكون هي نغمة الاتصال - ويضحك متعجبا من هذا الصديق الذي لم يتجاوز بعد مرحلة التفاؤل بالحياة رغم كل ما يحدث بالعالم من كوارث طبيعية وأحداث غير طبيعية على الإطلاق..

- أخبارك إيه صحيت وفوقت ولا لسه نايم؟!

- أنا في الطريق رايح على الكنيسة إنت فين؟

- أنا في المعسكر من الصبح وهنطلع كلنا من هناك على الجنازة..

- طيب أقابلك هناك..

وقبل أن ينهي "أحمد" المكالمة استدرك "وليد" الكلام وأضاف قائلا..

- استنى نسيت أقولك.. عارف مين بعت لي رسالة وعايز يقابلني يوم عيد ميلادي..

- مين؟! سحر!!
- سحر مين اللي هقابلها يوم عيد ميلادي؟ هو إنت شارب حاجة على الصبح؟

- آه والله شارب المر في المعسكر النهارده.. بس أنجز وقول مين علشان بنستعد نتحرك من عندنا..

- مروة شهدي.. جارتي اللي كانت ساكنة في العمارة اللي بعد بيت أهلي بعمارتين.. فاكرها..

- وهي دي تتنسي يا وليد.. وإيه اللي فكرها بيك بعد السنين دي كلها؟!

- مش عارف بس لاقيت منها رسالة بتقولي عايزة تشوفني يوم عيد ميلادي.. دي لسه فاكرة عيد ميلادي بنت الإيه!

قالها وهو يضحك ضحكة زهو بنفسه..

- وهو إنت عيد ميلادك إمتى؟

- نعم يا خويا هتستعبط.. هو إنت لسه عارفني أول إمبارح.. المهم.. اعمل حسابك هنقابلها سوا يوم التلات..

- طيب هي عايزة تقابلك عشان عيد ميلادك وعشان الذي مضى.. أنا هروح معاك أعمل إيه؟

- حتيجي معايا يا أحمد.. مش هقابل مروة لوحدي.. مش عايزة أقابلها لوحدي تاني بعد كده، يالا اقفل عشان تلحق تتحرك من عندك.. هكلمك لما أوصل الكنسية..

أنهى "وليد" المكالمة وهو يقبض على مقود السيارة بكل ما فيه من تصميم على ألا يجعل حياته مرة أخرى محطة ترانزيت للنساء عابرات السبيل وهو يتمتم حانقا..

- هو أنا بحب رفيف بجد ولا إيه؟!

فكر للحظات أن يتصل بها أو يرسل لها ردا على رسالتها التي لم يفتحها حتى الآن كي لا يصل إليها إشعار بأن الرسالة قد تمت قراءتها.. ولكنه عدل عن الفكرة.. يكفيه في الوقت الراهن أن تحتل تفكيره احتلالا مستبدا دون أن يتورط في اعتراف بالحب لم يحن وقته بعد.. فالاعتراف بالحب يعني أنه لا بد أن يليه خطوة لاحقة.. وبالرغم من أنه يشتهيها ويتمناها.. ويحلم باليوم الذي يضمها فيه بين ذراعيه ليبثها شوق سنين عمره التي قضاها وهو يبحث عنها.. إلا أنه أيضا يخشى عليها من تقلباته المزاجية.. يخشى أن تتحول نعمة الحب التي وهبتها له السماء ذات مساء إلى نقمة منها عليه أن لم يمنح هذا الحب ما يستحقه من وقته ونفسه وكيانه.. هذا الكيان الذي لا يزال يرضخ تحت وطأة سنوات من الغضب المحموم الذي يتأجج في صدره..

أسرته عينيها حين رآها لأول مرة.. كان ذلك في حفل تكريم بعض مصابي الشرطة والذي أقيم بالمسرح الصغير بدار الأوبرا المصرية يوم التاسع عشر من

نوفمبر عام 2013 ذكرى أحداث محمد محمود.. تلك الأحداث التي شهدت عنفا مدبرا من قبل بعض المتآمرين على الوطن وعلى مواطنيه.. الطرف الثالث.. الذي ظل خفيا عن أنظار بعض الغافلين وإن كان واضحا جليا لكل صاحب بصيرة في هذا الوطن.. والتي انتهت بوقوع عدد ليس بالقليل من المصابين والقتلى من طرفي المواجهة.. قوات الشرطة وبعض أفراد من الشعب الذين شاركوا في التظاهرات آنذاك..

كانت قاعة المسرح تضج بالحضور الذين أتوا من كل مكان للمشاركة في تكريم أبطال الشرطة المصرية.. لم يكن التكريم مقصورا على مصابي أحداث محمد محمود فقط بل وغيرهم من المصابين في مختلف الأحداث التي شهدتها مصر على مدار شهور العام المنصرم. .
كانت "هالة محسن" صديقة "رفيف" من خلال "فيس بوك"، التي التقتها عدة مرات للتعارف الشخصي في مناسبات ثقافية.. هي إحدى الصحفيات اللاتي تولين نشر خبر حفل التكريم في أكثر من موقع وصحيفة إلكترونية وورقية.. أصرت "هالة" على حضور "رفيف" للحفل لما للأخيرة من نشاط ملحوظ على موقع التواصل الاجتماعي في الدفاع عن هؤلاء الأبطال.. راقت لرفيف فكرة حضور حفل كهذا تقديرا منها لدورهم وكدعم معنوي لهم.. فهذا كل ما تستطيع تقديمه لهم بخلاف ما تكتبه من منشورات على "فيس بوك" دفاعا عنهم ودفاعا عن وطن ينتهك كل يوم أمنه بحجة ديمقراطية وهمية وحرية مزعومة..

كانت "رفيف" في ذلك اليوم ترتدي فستانا أنيقا قصيرا من المخمل فوق الركبة مباشرة بلون الورد يتلاءم مع لون بشرتها ويبرز فتنة جسدها الممشوق.. يكشف عن ساقين منحوتتين بدقة وعن كتفين كالمرمر.. وكانت تضع فوق كتفيها شالا من الحرير الطبيعي الأسود.. وتنتعل حذاء أسود زاد ساقيها جمالا فوق جمالها.. وترتدي في أذنيها قرطا متوسط الطول من الفضة مشغولا بدقة يتدلى من نهايته حبة صغيرة الحجم من حجر الأونكس الأسود.. كانت ترفع شعرها لأعلى تاركة بعض خصلاته المموجة تتهدل في تناغم فوق جبينها.. أما عيناها فكانتا كنجمتين لامعتين في سماء ذلك الكحل الأسود الذي حدد أعلى جفنيها تحديدا رفيعا ودقيقا.. بدت كأميرة من الأميرات العصريات في لوحة فنية بديعة متناغمة الألوان..

انقضى النصف الأول من الحفل والمسؤول عن تنظيمه كان لا يزال يعلن عن أسماء الضباط المصابين للصعود إلى خشبة المسرح لتكريمهم.. كانت "رفيف" تجلس في الصف الثاني من المسرح بجوار صديقتها "هالة" في المقاعد المخصصة للصحفيين والإعلاميين.. والأخيرة تسرد عليها تفاصيل كل حادثة وقعت لكل ضابط يعتلي خشبة المسرح لاستلام درع التكريم الخاص به وكأن "رفيف" تجلس بجوار موسوعة صوتية.. دلف "وليد" في ذلك الوقت إلى القاعة من الباب الذي يقع مباشرة خلف الصف الأخير من المقاعد فسمعت همهمات

عالية للفتيات اللاتي حضرن الحفل فالتفتت لترى سر هذه الهمهمات التي سرت فجأة في القاعة.. فوجدته مقبلا ناحية الصفوف الأمامية.. هامته عالية في شمم.. كان يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا رماديا داكنا وحذاء أسود ويمسك بإحدى يديه سلسلة مفاتيح السيارة وهاتفه المحمول.. واليد الأخرى كان يلقي بها السلام على بعض ضباط الشرطة الحاضرين.. عيناه كانتا تلتقطان سريعا كل الوجوه.. خاصة وجوه الفتيات والنساء وكأنهما عين كاميرا رقمية.. وصل إلى الصف الأول من المقاعد الأمامية والمواجهة لخشبة المسرح مباشرة الذي كان يسبق صف المقاعد الذي تجلس فيه "رفيف" حيث كان هناك عدة مقاعد شاغرة أمامها..

ألقى السلام على بعض الضباط الجالسين في عدد من المقاعد الأمامية ثم هم بالجلوس على أحد المقاعد الشاغرة بجوار ضابط يرتدي الزي الميري.. ويبدو من رتبته أنه لواء.. ولكنه لمحها في الصف الذي يليه تبتعد عن مقعده بثلاثة مقاعد.. فعدل عن الجلوس وتوجه إلى المقعد الذي يقع قبل مقعدها مباشرة.. والتفت إليها التفاتة متعمدة وهو يجلس.. طاف بعينيه في وجهها قليلا ثم صوب نظراته إلى عينيها.. لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة.. في الوقت الذي بادرته "هالة" بالحديث..

- مقدم وليد أخبار حضرتك إيه أنا متابعة أخبارك دايما على "فيس بوك" ربنا يقويكم..

أومأ لها برأسه إيماءة خفيفة علامة على الإيجاب والشكر ولكنه لم يزل صامتا.. همست "هالة" لرفيقتها بصوت خفيض بعد أن أدار وليد رأسه ناحية المسرح..

- ده المقدم وليد ظابط عمليات خاصة معروف جدا على "فيس بوك"، غالبية صفحته بنات هيتجننوا عليه بس هو حاسس بنفسه شوية.. مغرور يعني ومش بسهولة أي واحدة تعرف تخليه يهتم بيها..

لم تعقب "رفيف" على كلام "هالة" ولكنها هزت كتفيها بلا مبالاة علامة على عدم الاكتراث بكل ما ترويه عن ذلك الرجل الذي تتهافت عليه النساء والفتيات..

أثار ما تقوله "هالة" شعورا بالشفقة لدى "رفيف" على هؤلاء النسوة اللاتي يسفحن كبريائهن تحت أقدام رجل حتى ولو كان آخر الرجال في العالم كما شعرت بالغيظ من "وليد" ذلك الذي اخترق بغتة مجالها العاطفي دون أن يبالي بالحريق الذي شب في كيانها من نظرة عينيه.. أما هو فقد سمع كلمات متفرقة مما كانت "هالة" تهمس به لرفيف مما جعله يبتسم ابتسامة ذات مغزى..

أعلن المسؤول عن تنظيم الحفل عن انتهائه بعدما شكر الجهة المسؤولة عن التنظيم والحضور إلى آخر ذلك من مراسم الختام المعتادة في حفلات مماثلة.. وبدأت القاعة تضج بالأصوات المختلطة ما بين سلام وكلام وعتاب وتعليقات على

ما تم عرضه من حقائق ومعلومات أثناء الحفل..

كانت "رفيف" تنتظر مغادرة الجلوس المجاورة لها حتى تتمكن من عبور ذلك الممر الضيق الذي يفصل بين صفوف المقاعد.. حيث كانت تجلس في منتصف الصف في الوقت الذي قفزت فيه "هالة" من فوق أرجل الجلوس لتلحق ببعض الضباط المكرمين لتحصل منهم على بعض التصريحات الصحفية لنشرها.. وبعد أن فرغت المقاعد المجاورة لرفيف من جالسيها أخذت تتلفت يمينا ويسارا بحثا عن "هالة" التي اختفت وسط الزحام، في تلك اللحظة التفت إليها "وليد" التفاتة سريعة وباغتها قائلا..

- أنا مردتش على صاحبتك بس عشان يكون أول كلام أقوله هو إنك أجمل واحدة في الحفلة..

ارتبكت ولم تدر ما عساها تقول.. لم تجد غير كلمة واحدة تنقذها من هذا المأزق الذي وضعها فيه بكل صلف وتحدٍ.. فابتسمت ابتسامة بلهاء وهي تجيبه..

- ميرسي..

ارتسمت ابتسامة انتصار واسعة على شفتيه وهو يقف مادا لها يده لمصافحتها.. فمدت له يدا مرتعشة وكأنها تخشى أن تشعل لمسة يديه المزيد من النيران في أعصابها.. وما أن استقرت يدها في يده حتى رفع كفها إلى أعلى وقربه من فمه وطبع قبلة خفيفة على ظهر كفها.. تسارعت دقات قلبها وعلا صوت نبضاته.. أطلق سراح كفها كعصفور لم يعد قادرا على الطيران بعدما ذاق حلاوة الأسر بين يديه.. ثم صوب عينيه إلى عينيها وهو يقول بنبرة واثقة..

- لازم هنتقابل تاني وقريب..

تركها تقف مشدوهة من فرط الحلم.. وعاد من حيث أتى متجها ناحية باب القاعة يختال في مشيه.. موزعا ابتسامته على النساء والفتيات اللاتي حاولن التحدث إليه.. ولكنه اعتذر لهن جميعا بوجوب سرعة مغادرته لانشغاله بالعمل.

(7)

وصل "وليد" إلى مبنى الكنيسة فوجد حشدا من السيارات يصطف أمامها.. وجموع من الناس أمام الباب الخارجي في انتظار وصول سيارة الموتى التي تحمل جثمان الشهيد "ماجد مرقس".. كانت الساعة تقترب من الثانية ظهرا.. صف سيارته بمسافة ليست بالبعيدة عن الكنيسة وترجل منها متجها إلى بوابتها الخارجية.. طاف بعينيه بحثا عن "أحمد حسن" فلم يجده فاتصل به ليبلغه

الأخير آن آمامه حوالي خمس دقائق ليصل إلى الكنيسة هو الآخر.. صافح "وليد" عددا من الضباط الموجودين في الجمع والذين وقفوا جميعا وبدا عليهم حالة من التأثر والحزن الحقيقي في انتظار وصول جثمان الشهيد لما كان يتحلى به من دماثة خلق وتفانيه في خدمة الوطن والدفاع عنه.

تزامن وصول "أحمد حسن" مع وصول جثمان "ماجد مرقس"الذي تسابق الجميع لحمل صندوقه للدخول به إلى القاعة التي ستقام بها مراسم الجنازة.. والذي حرص "وليد" أن يكون أحدهم بل أولهم.. وصلوا بالصندوق إلى القاعة المخصصة لإقامة صلاة التجنيز وضعوا الصندوق على الطاولة المخصصة له أمام الهيكل والتي ما إن استقر عليها حتى تم رفع غطائه ليظهر "ماجد" في أبهى صورة.. كان قد أوصى بأن يرتدي زيه الميري الجديد الذي كان يحتفظ به ليوم زفه إلى السماء.. فكان دائما ما يقول لزملائه إنه يتمنى أن يموت فداء للوطن وأنه سيصعد إلي السماء بملابس خدمته التي يتشرف بها في كل مكان.. كان وجهه مبتسما وكأنه يشكر الله على أنه قد حقق له أمنيته كما أرادها.

ألقى "وليد" نظرة وداع على وجه "ماجد" وهو يتمتم بالدعاء له بالرحمة والمغفرة وأن يكون مع الصديقين والشهداء في الفردوس الأعلى.. ثم انسل من بين الجمع ليجلس في آخر صف في القاعة ليجتر أحزانه وأفكاره بعيدا عن العيون..

كانت القاعة مزدحمة بالمشيعين من أسرة الشهيد وأقاربه وجيرانه وأصدقائه، بالإضافة إلى عدد ليس بالقليل من زملائه بالداخلية.. بدأت مراسم الجنازة حيث بدأ القس في تلاوة صلاة التجنيز.. وتم رفع البخور في تلك الأثناء والذي عبق أرجاء القاعة برائحته المميزة التي تبعث في النفس سكينة وسلاما.. وقف جميع الحضور أثناء تلاوة الصلاة كما هو متبع..

بدت "سماء" وهي ترتدي السواد وتقف بجوار جثمان زوجها الراحل شاحبة اللون وكأن ألوان الحياة فارقتها جميعا برحيله فما عاد غير السواد يغلف أيامها المقبلة.. و ما عاد غير الشحوب يجثم على أيامها الماضية.. كانت تلقي عليه نظرة الوداع بعينين ذابلتين واجمتين غير مصدقة أنها المرة الأخيرة التي سترى وجهه أمامها حقيقة لا خيالا أو تذكرا.. لم تستطع البكاء وكأن عينيها ما عاد بهما دموع من كثرة ما بكت منذ أن تلقت خبر الرصاصة التي اخترقت قلبه وقلبها على حد سواء..

حاول "وليد" أن يتشاغل عن أفكاره بالتطلع إلى جدران القاعة وسقفها المزدان بالرسومات حتى وقعت عيناه على صورة الشهيد "مار مينا".. والذي أطلق اسمه على الكنيسة تيمنا به.. أول جندي مصري شهيد.. زم شفتيه في أسف على ما يحاول المتطرفون زرعه من فتن بين أبناء الوطن الواحد.. لم تكن صورة الشهيد "مار مينا" هي الوحيدة التي تزدان بها جدران القاعة.. بل كانت هناك

عدة صور أخرى لشهداء من الجنود المصريين أثناء الاحتلال الروماني لمصر، تم تصوير اثنين منهما وهما الشهيد "فيلوباتير" المعروف مصريا باسم "أبي سيفين" والشهيد "مار جرجس".. وفي الصورتين يظهر الشهيدان وهما يمسكان سيفين.. سيف يحاربان به الشيطان والسيف الآخر يدافعان به عن عرض الوطن..

بعد أن انتهى القس من تلاوة الصلاة تبعه أحد الشمامسة بتلاوة بعض أجزاء من الإنجيل.. ثم عاود القس الحديث ولكن هذه المرة بإلقاء العظة عن معنى الموت وعن وجوب تقديم الأعمال الصالحة في الحياة.. ثم بدأ حديثه عن الشهيد "ماجد" الذي كان يشهد له الجميع بحسن الخلق والتعامل الطيب مع الآخرين وكيف كان يشارك في أعمال البر والخير التي تقوم بها الكنيسة.. كما أشاد بدوره في الدفاع عن الوطن وحمايته طيلة مدة عمله بالشرطة المصرية..

كان "وليد" لا يزال شاردا في ذكرياته عن الأحداث التي جمعت بينه وبين "ماجد".. وعن مواقف ماجد البطولية وعن شجاعته وإقدامه في مواجهة الإرهابيين في كل حدث منهم عندما أحس بيد "أحمد" تربت على كتفه لإبلاغه أن المراسم قد انتهت وأنه سيتم التحرك الآن إلى مدافن الأرثوذكس التي تقع على طريق التجمع الخامس كي يواروا "ماجد" مثواه الأخير..

انطلق ركب السيارات خلف سيارة الموتى حتى وصلوا إلى المدافن في تمام الساعة الرابعة ليحمل أقرباؤه وأصدقاؤه صندوق جثمانه وينزلوا به إلى مقبرته موصين إياه بأن يضمه كأم حانية..

بعدما أسلم "وليد" جثمان "ماجد" إلى شبر من أرض الوطن صعد من المقبرة وسار بضع خطوات بعيدا عن الحشد حتى أصبح على مسافة منهم وأطلق سراح دموع كانت حبيسة عينيه منذ الصباح.. ملأ رئتيه بالهواء ليستعيد رباطة جأشه من جديد ثم أشعل سيجارة وأخذ ينفث دخانها في هدوء وكأنه يستعين بها على كل ما يجول في خاطره من ترتيبات للأيام المقبلة لمعركة قرر أن يخوضها..

(8)

لم تنم "رفيف" نوما هانئا.. فتحت عينيها مع أول خيط من خيوط الفجر.. حملت بين يديها هاتفها المحمول الملقى بجوارها كعصفور حزين.. نظرت إلى شاشته.. لا رسائل جديدة.. لا شيء على الإطلاق.. فكرت في إرسال رسالة ثانية لوليد

ولكنها عدلت عن تلك الفكرة.. الكبرياء دائما قبل الحب.. مبدأ لم تتخل عنه قط.. ولن تهجره وإن كان هجره هو همزة وصلها بنصف حبيب..

ظلت في الفراش نصف ساعة وعينيها ساهمتين معلقتين بفراغ الغرفة.. ثم قررت مغادرته ومحاولة الانشغال عن تفكيرها فيه بأي شيء حتى وإن كان شيئا تافها بلا معنى.. رسمت ابتسامة لا مبالاة على شفتيها.. وهي تمارس شتى مهارات الإقناع مع عقلها وقلبها وأعصابها.. في طريقها للمطبخ اتجهت ناحية مشغل أسطوانات الموسيقى الرقمي وأخذت تقلب في الأسطوانات الموضوعة بجانبه حتى وجدت بغيتها أسطوانة حيرت قلبي معاك لكوكب الشرق أم كلثوم.. وضعت الأسطوانة في المكان المخصص.. أغلقت باب المشغل.. ثم ضبطت درجة ارتفاع الصوت على درجة تتيح لها سماع الأغنية في جميع أرجاء شقتها..
ارتسمت على شفتيها نصف ابتسامة مريرة وصور شتى تزدحم في مخيلتها عما يرتكبه المتطرفون من جرائم باسم الدين وما يقترفونه من موبقات ومحرمات بزعم أنها شرع من عند الله ثم يحرمون الغناء والموسيقى في المقابل ويزعمون أنها رجس من عمل الشيطان.. ثم وجدت نفسها وهي تتجه إلى المطبخ تترنم بأبيات شعر للشاعر إيليا أبو ماضي.. "إن نفسا لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها أنا بالحب قد وصلت إلى نفسي وبالحب قد عرفت الله"..

الحب.. نعم الحب هو أصل الحياة وسر الوجود.. كان التصفيق الصادر من مشغل الأسطوانات يعلن عن بدء الأغنية.. غردت ألحان رياض السنباطي كطائر ذبيح قبل ان تئن أم كلثوم من ألم مغلف بكبرياء.. تسلل اللحن إلى "رفيف" وهي واقفة في المطبخ تعد فنجانا من النسكافيه السادة التي اعتادت أن تبدأ به يومها كل صباح.. انتهت من إعداده وخرجت من المطبخ في اتجاه طاولة صغيرة مخصصة لحاسوبها المحمول تضعها في أحد أركان غرفة المعيشة.. ضغطت زر تشغيله قبل أن تذهب لفتح نوافذ غرفة المعيشة لتجديد هواء الغرفة وإنارتها بضوء النهار.. وبعد أن أنهى الحاسوب تحميل نظام التشغيل لتطالعها شاشته تحمل صورة لوليد وهو يجلس على شاطئ سهل حشيش ناظرا إلى السماء.. جلست على مقعدها الوثير الذي اختارته خصيصا لمهمة الجلوس عليه لساعات طويلة أمام نوافذ عالمها الافتراضي.. دخلت على حسابها على "فيس بوك"، ظهر لديها ثلاث رسائل واردة.. فتحت صندوق الرسائل بلهفة متمنية أن تكون إحداها رسالة من هذا الجالس على شواطئ أحلامها.. ولكنها لم تجد اسمه بين الأسماء.. "بدي أشكيلك من نار حبي بدي أحكيلك على اللي في قلبي وأقولك ع اللي سهرني وأقولك ع اللي بكاني وأصور لك ضنى روحي وعزة نفسي منعاني".. كانت أم كلثوم في ذات اللحظة تصدح بألم مستتر كذاك الذي يستتر خلف غيوم عيني "رفيف" التي وقبل أنا تبدأ في قراءة الرسائل ظهر أمامها على الشاشة إطار إحدى تلك الرسائل.. بها جملة "صباح الورد يا أجمل وردة".. كان المرسل هو "خالد يحيى" أحد أصدقائها من ضباط القوات المسلحة المصرية التي ترابط على الحدود في شمال سيناء..

- آخبارك إيه يا رفيف.. آنا آسف إني مش بسأل آنا عارف إني مقصر بس ضغط الشغل.. أنا حتى مدخلتش على "فيس بوك" من كام يوم..

- أنا الحمد لله تمام.. المهم أخبارك إنت إيه طمني عليك وعلى الأوضاع عندك.. قلقت عليك لما لاقيتك اختفيت وحاولت أكلمك كمان موبايلك كان مقفول..

- أيوه معلش كنت في مكان الشبكة فيه ضعيفة.. الحمد لله الأوضاع تمام متقلقيش.. كله تحت السيطرة.. جيش بلدك وحوش يا رفيف.. متخافيش على البلد..

ثم أرسل إليها وجها مبتسما ألحقه بيد تحمل باقة ورود.. وأضاف قائلا..

- رفيف.. خلي بالك من نفسك ومتقلقيش من أي أخبار تقريها أو تسمعيها الأيام الجاية.. أنا يمكن مقدرش أكون متواجد على "فيس بوك" كتير بس هحاول أفتحه اطمن عليكي من وقت للتاني.. هتوحشيني جدا..

لم تجب عليه وإنما اكتفت بإرسال وجه يعبر عن الخجل..

- رفيف..

- أيوا يا خالد..

- أبدا ولا حاجة.. يمكن المرة الجاية أقولك.. دلوقتي هقولك سلام عشان لازم أروح أشوف الأحوال إيه وأخلص شوية شغل مهم.. لا إله إلا الله..
- محمد رسول الله..

خرج "خالد" من "فيس بوك" وخلف وراءه أسئلة حيرى تتردد أصداؤها في نفسها.. ما تراه هذا الأمر الذي أراد أن يخبرها به ولكنه سكت عنه؟!..

عادت لتصفح الرسائل الباقية.. فوجدت رسالة من حساب لا تعرفه باسم "أم الدرداء" تتوعدها بالويل والثبور وعظائم الأمور وتتهمها بالكفر والزندقة.. فكيف لامرأة مثلها تضع صورتها على "فيس بوك"، وتظهر وجهها وشعرها للرجال أن تصف من يحاربون أعداء الدين من جيش وشرطة ونظام بالمتطرفين.. هزت رفيف رأسها تعجبا وهي تقرأ تلك الكلمات البلهاء وضحكت ضحكة استهزاء.. ولم تكلف نفسها بالطبع عناء الرد ولكنها حظرت صاحبة الرسالة وحذفت رسالتها..

وجدت الرسالة الثالثة من "طارق منير" والذي يحمل اسم بحبك يا مصر على "فيس بوك"

"رفيف فيه موضوع مهم وضروري ومستعجل كمان.. أول ما تكوني موجودة أون لاين ابعتيلي"..

فأرسلت له رسالة أنها موجودة وفي انتظاره وبعد دقائق قليلة كان قد وصلها منه رد أنها مكلفة بمهمة ما في الأيام المقبلة التي يجب أن يعمل الجميع بأقصى جهدهم لتخطيها بسلام.. تركها طارق بعد أن زاد من الحيرة التي خلفها "خالد" قبل رحيله..

كانت قد التقت "طارق" من قبل في أحد مكاتب المخابرات الحربية بمدينة نصر.. حين عثرت على حافظة نقود في أحد الشوارع ذات يوم من أواخر أيام عام 2013 وعندما فتحتها لتتعرف على صاحبها لتعيدها إليه أو لتسلمها لأقرب قسم شرطة تفاجأت بقصاصة ورق مكتوب فيها اسم ضابط جيش وبجوارها كلمة واحدة تصفيته.. صعقت مما قرأت وأحست أن تفكيرها أصابه شلل مفاجئ، أخذت تفتش في الحافظة فوجدت عدة بطاقات ائتمانية لبنوك مختلفة، ووجدت الرقم القومي لصاحب الحافظة كانت ملامحه تشي بشر غامض وكأنها تفضح نواياه الإجرامية المستترة.

احتفظت بحافظة النقود معها حتى عادت للبيت وطلبت رقم 140 من الهاتف الأرضي.. وعندما أجابها الموظف المسؤول طلبت منه رقم أي مكتب من مكاتب المخابرات الحربية.. سألها الموظف باستغراب محاولا التأكد من صحة ما قالته..

- حضرتك عايزة رقم مكتب للمخابرات الحربية!!
- أيوه إيه الغريب في كده.. هي الأرقام سرية ولا مش مدرجة في الدليل؟

- الحقيقة إن مافيش عندنا في الدليل أرقام أي مكتب للمخابرات الحربية والحقيقة كمان أول مرة من وقت ما اشتغلت في الدليل حد يطلب مني الطلب ده..

- طيب شكرا.. سلام..

أغلقت الهاتف وهي لا تزال تتخبط في حيرتها وناقوس خطر يدق في أذنيها بلا توقف.. خطفت سلسلة مفاتيحها من على الطاولة وأغلقت باب شقتها في عجالة وانطلقت بسيارتها لا تدري تحديدا إلى أين ولكنها عزمت على أن تصل إلى مبتغاها.. صفت سيارتها في أحد الشوارع الجانبية بمدينة نصر.. التي تجاور بعض المنشآت التي تبدو من هيئتها أنها منشآت عسكرية وترجلت سيرا على قدميها متجهة نحو بوابة أحد تلك المباني.. استوقفها عسكري على البوابة.. شرحت له الأمر وسألته عن مسؤول يمكنها تسليمه تلك الأوراق التي عثرت عليها.. طلب منها العسكري الانتظار في حين أشار لآخر كان يقف على مسافة ليست بالبعيدة عنه والذي اصطحبها لداخل المبنى وما أن دلفا من البوابة الخارجية حتى اتجه بها نحو غرفة صغيرة يجلس بها بعض أفراد التأمين اطلع أحدهم على رقمها القومي وطلب منها إغلاق هاتفها المحمول وتسليمه له ثم استفسر منها عن سبب زيارتها.. بعدما روت له ما حدث طلب منها الجلوس في

المكان المخصص لانتظار الزوار.. رفع سماعة الهاتف الموضوع على مكتبه للاتصال بمكتب أحد الضباط المتواجدين في المبنى.. في الوقت الذي كانت هي تبتعد عنه لتلقي بنفسها وبهواجسها على أحد المقاعد..

مكثت ما يقارب من نصف الساعة على حافة الانتظار.. شعرت بأن الدقائق تتآمر عليها ولا تكاد تمر.. كانت تريد أن تتخلص من عبء هذه القنبلة الموقوتة التي تعثرت بها في الطريق.. إلى أن ظهر أخيرا أحد الضباط من داخل المبنى واتجه ناحيتها بعد أن أسلمه أحد أفراد الأمن الرقم القومي الخاص بها.. والذي تفحصه الضابط بعناية وهو يقرأ بياناته كاملة مرة تلو المرة.. ثم رفع إليها عينيه وهو يعيده إليها وبدأ في طرح أسئلة عديدة عن موضوع الحافظة قبل أن يتسلمها منها ويشكرها على تعاونها.. وقبل أن تهم بالانصراف أوقفها الضابط وكأنه تدارك أمرا مهما.. فطلب منها أن تترك له رقم هاتفها المحمول قبل أن تغادر المكان للاتصال بها في حال احتاج أن يطرح عليها مزيدا من الأسئلة.. فاتجهت ناحية مكتب أفراد الحراسة ودونت اسمها بالكامل ورقم الهاتف على ورقة بيضاء موضوعة على المكتب..

سلمها أحد أفراد التأمين هاتفها المحمول طالبا منها ألا تقوم بتشغيله إلا بعد تخطيها البوابة الخارجية..

غادرت المكان وهي تلتقط أنفاسها وكأنها كانت في سباق مع الوقت.. وانتابتها حالة من السلام الداخلي بعد أن أحست أنها أدت المهمة على أكمل وجه..

في اليوم التالي رن هاتفها المحمول دون أن يظهر رقم والشاشة تضيء بكلمة private number .. أجابت المكالمة فجاءها من الجهة الأخرى من الخط صوت جاد متأنٍ..

- أستاذة رفيف سليم..

- أيوه أنا.. مين حضرتك؟

- أنا الرائد طارق من الأمن الحربي.. باتصل بحضرتك بخصوص المحفظة اللي سلمتيها للنقيب يسري إمبارح.. أقدر أعرف منك شوية تفاصيل عن الموضوع؟

- أكيد طبعا حضرتك تقدر تسأل كل الأسئلة اللي أنت عايزها.. وأنا هجاوبك ولو إني قلت كل حاجة إمبارح للنقيب يسري بس طبعا أكيد مستعدة أقولك كل حاجة مرة تانية..

- تمام جدا.. طيب حضرتك يا ريت تشرفيني في المكتب بكرة الساعة 12 الضهر.. هكون سايب اسمك على البوابة.. متنسيش تجيبي معاكي رقمك القومي عشان يتأكدوا من شخصيتك على البوابة؟

وأملاها عنوان المكتب الذي كان مختلفا عن المكان الذي التقت فيه بالنقيب يسري..

- حاضر هكون عند حضرتك في الميعاد..

- شكرا.. سلام..

- مع السلامة..

بعدما أنهى الرائد "طارق" المكالمة تنفست الصعداء وأحست براحة تسري في أوصالها بعد أن اطمأنت أن الأمانة تم تسلمها بالفعل. .

(9)

كان "وليد" لا يزال يدخن سيجارته على مهل حين أقبل عليه "أحمد" والحزن باديا على وجهه.. احتضنا بعضهما وكأن كل منهما يواسي الآخر ويحاول أن يخفف عنه فداحة المصيبة.. كان المعزون قد بدأوا في مغادرة المكان قبل أن تعلن الشمس عن مغادرتها للمكان.. تطلع "أحمد" إلى "وليد" الذي كان لا يزال صامتا وملامحه تشي بأنه يدبر أمرا ما..

- بتفكر في إيه؟.. شكلك ناوي على حاجة..

- بفكر هناخد بتار ماجد وبتارنا كلنا وبتار البلد كمان إزاي.. ولا هنستنى لما يخلصوا علينا واحد واحد.

- ووصلت لإيه؟

- وصلت لإننا لازم دلوقتي نروح نشوف مكان نتغدا فيه عشان هموت من الجوع يالا روح خد عربيتك وحصلني على مطعم أبو السيد اللي في الزمالك..

قالها "وليد" وهو يحاول أن يبدو مرحا بعض الشيء لا لشيء سوى الهروب من دوامة أفكاره التي تكاد تفتك به بلا رحمة كوحش كاسر..
- وإشمعنى أبو السيد يعني؟!

- عشان معدتي نشفت من المعلبات والسندوتشات اللي بقيت عايش عليها ما أنت عارف بقى العزوبية.. نفسي في أكل بيتي على سبيل التغيير ولو يوم..

- ما أنت اللي عامل في نفسك كده لا عايز تتجوز ولا عايز ترجع لسحر ولا عايز حتى تروح تقعد مع أمك وأختك..

وقبل أن يسترسل "أحمد" في ذات الحديث الذي سأمه "وليد" أجابه باقتضاب وبحدة قاطعة..

- هو أنت مبتزهقش من الموال ده.. أنا رايح على المطعم ومستنيك هناك.. متتأخرش عشان فيه مواضيع أهم من الكلام الفارغ اللي أنت بتقوله ده لازم نتكلم فيها.. سلام..

انطلق "وليد" بسيارته وهو في حالة من النشاط الزائد ربما أثارها فيه فكرة القضاء على "أبو سفيان" ومجموعته بأكملها.. وفي طريقه إلى المطعم قرر الاتصال بمروة.. الذي ما إن جاءه صوتها بدلاله المتعمد والمعتاد حتى أطلق ضحكة عالية وهو يقول لها..

- آلو يا فاتنة الدقي.. كنتي غطسانة فين كل السنين دي.. وأخبارك إيه وأخبار الشيخ عدنان إيه وأخبار لندن وباريس ومدريد.. وحشاني بجد يا بنت الإيه!

- أنا بخير وأنت كمان واحشني وإلا مكنتش اتصلت بيك.. قررت أرجع استقر في مصر خلاص وأنت أول واحد يجيي على بالي بعد ما رجعت من السفر.. حاولت اتصل بيك لقيت موبايلك مقفول عشان كده بعتلك رسالة.. أنا رجعت أعيش في شقة أهلي تاني في الدقي.. وسألت عنك أختك قالتلي إنك عايش في شقة لوحدك في الرحاب.. وصلت مصر من حوالي أسبوعين بس أنت عارف طبعا الشقة كانت مقفولة من سنين ومحتاجة تنضيف جامد.. اتشغلت في تنضيفها وأول ما فضيت قلت أكلمك..

ثم صمتت قليلا قبل أن تستطرد في كلامها بنبرة حاولت أن تبدو جادة بعض الشيء لتتلاءم مع الخبر الذي ستلقيه على أسماعه..

- عدنان تعيش أنت.. أزمة قلبية حادة مقدرش يتحملها عشان سنه ومات في لندن من شهر.. الله يرحمه..

- الله يرحمه والبقاء لله.. مش عارف أقولك إيه.. ربنا يصبرك..
قاطعته بنبرة مرحة وقد عاد صوتها إلى دلاله مرة أخرى:

- تقولي إن الحي أبقى من الميت وتقولي كمان هشوفك إمتى هو أنت مش بتيجي تزور مامتك ولا إيه.. أختك قالتلي إنك من مدة مرحتش عندهم دول حتى زعلانين منك بسبب الموضوع ده.. وتقولي إنك هتسهر معايا يوم عيد ميلادك ولا مش عايز تشوفني زي ما أنا عايزة أشوفك!

- خلاص اعتبري نفسك شوفتيني.. أنا في كل الأحوال كنت ناوي أروح الدقي كمان كام يوم أوديلهم هدومي اللي محتاجة غسيل.. هخلي الزيارة يوم عيد ميلادي هقعد معاهم شوية وبعدين أعدي عليكي أقعد معاكي شوية.. بس

هيكون معايا أحمد حسن صاحبي أكيد فاكراه.. هاخده معايا وأنا بزور ماما سبب اتحجج بيه إننا خارجين نسهر علشان عيد ميلادي ونجيلك نكمل السهرة عندك..

تنهدت تنهيدة ذات مغزى هو الوحيد القادر على فك طلاسمها وقراءة ما بين أنفاسها.. فزاده ذلك تصميما على أن يرافقه "أحمد" في ذلك اليوم..

(10)

"مروة شهدي".. في منتصف الأربعينات من عمرها.. فارعة الطول.. تمتلك جسدا أنثويا مثيرا تحسدها عليه الكثيرات.. تفضل اللون الأشقر لشعرها الذي يصل إلى منتصف ظهرها.. عيناها جريئتان، توحيان بأنهما على وشك اقتناص أول رجل يلوح أمامهما ويثير إعجابهما..

فقدت أباها وهي في سن السادسة عشرة وانتقلت للعيش هي وأمها مع جدتها لأمها في حي الدقي.. سافرت أمها التي كانت تعمل مدرسة للمرحلة الثانوية للعمل بإحدى دول الخليج لتتمكن من الإنفاق على ابنتها الوحيدة ومساعدتها على استكمال دراستها الثانوية والجامعية تاركة إياها في مصر في رعاية جدتها..

وبالرغم من جمال "مروة" الصارخ وأنوثتها المتفجرة التي بدت جلية عليها منذ مرحلة المراهقة إلا أنها كانت متفوقة دراسيا.. طموحة إلى أقصى درجات الطموح.. حصلت على مجموع كبير في الثانوية العامة كان يؤهلها للالتحاق بكلية الطب كما كانت أمها تتمنى إلا أنها أصرت على الالتحاق بكلية الإعلام..

كانت دوما ما تغمض عينيها وتتخيل نفسها مذيعة تليفزيونية مشهورة يطاردها المعجبون أينما ذهبت.. وأمام إصرارها لم تجد أمها سوى الرضوخ لرغبتها.. وبالفعل التحقت بكلية الإعلام جامعة القاهرة وحققت فيها أيضا تفوقا ملحوظا..

كانت مثار غيرة وحسد زميلاتها في الجامعة.. ومثار إعجاب وتمني شبابها.. حتى اقتحم الحب قلبها دون سابق إنذار.. الأمر الذي أربك جميع حساباتها.. كانت في ذلك الوقت بالسنة الثالثة من الجامعة.. أما هو فكان في السنة النهائية من كلية العلوم قسم كيمياء عندما التقته ذات صباح من صباحات عام 1990 في كافيتريا كلية الاقتصاد والعلوم السياسية حيث كان بصحبة بعض شباب الجامعة يتحدثون عن أحداث غزو العراق للكويت وتبعات هذا الغزو على المنطقة العربية بأكملها..

جذب انتباهها الحديث فانضمت لحلقة النقاش لتستمع إلى آراء الطلبة في هذا الموضوع خاصة أنه كان من ضمن الموضوعات المطروحة لتقديم ورقة بحث عنه

في كليتها..

كان "كريم الصفتي" أكثرهم حديثا ودراية بتفاصيل تلك الحرب التي كانت بمثابة الطعنة في جسد الوطن العربي المنهك.. كان يبدو وهو يتحدث كأحد المحللين السياسيين البارزين.. أبهرها حديثه وقوة حجته فاستبقته للمحاورة بعدما انفض الجمع.. طرحت عليه أسئلة كثيرة وما ضاعف من انبهارها أن ما من سؤال إلا وله إجابة لديه بدت لها منطقية!

بدأ كريم بعد ذلك اليوم يتردد على كافيتريا كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بحجج واهية ليلتقي بها.. حتى تمكن من نيل قلبها واعترف لها بحبه.

اتفقا على إعلان خطبتهما بعد انتهائها من دراستها الجامعية واشترطت عليه أن يتركها تعمل في مجال الإعلام كما حلمت دائما حتى بعد زواجهما.. أبدى لها موافقته آنذاك مما زادها شغفا وولها به..

أنهت "مروة" دراستها الجامعية بتقدير جيد جدا.. وتم تحديد موعد خطبتها لكريم بعد عودة أمها لمصر في إجازتها السنوية، ولكن القدر كان له ترتيب مغاير لكل ما أرادته هي وخططت له.. لقت أمها مصرعها في حادثة مروعة وهي في طريقها للمطار لعودتها لمصر..

لم تتمكن جدتها من التغلب على فقدان ابنتها على هذا النحو المريع فلحقت بها بعد سنة واحدة بعدما أنهكها الحزن واستبد بها المرض وتركت تتجرع قسوة الحياة وحدها..

تخلت "مروة" عن أحلامها لبعض الوقت وارتضت بالعمل كمعدة برامج.. كانت تعلم أن بإمكانها أن تبدأ حياتها العملية كمذيعة.. كما أرادت لو أنها قدمت بعض التنازلات لرئيس القناة التي التحقت للعمل بها ولكنها أبت إلا أن تحفظ كل ما جادت به الدنيا عليها من أنوثة لحبيبها وزوجها المستقبلي "كريم الصفتي" الذي بدأ يفقد صبره من تأجيل زواجهما للظروف القاسية التي مرت بها مؤخرا.. حتى فاتحها في الأمر ذات يوم مهددا إياها إن لم يتم زواجهما خلال شهر فسيقطع كل علاقة له بها..

- تقدري تقوليلي مستنيين إيه علشان نتجوز.. الشقة وموجودة نتجوز في شقة جدتك اللي إنتي قاعدة فيها لوحدك وده مينفعش.. والشغل وأنا دلوقتي بشتغل في شركة بترول يعني مرتبي يعيشنا مرتاحين ومش هنحتاج لشغلك كمان في حاجة.. لكن تأجيل تاني أنا مش هقبله.. يا نتجوز يا نسيب بعض، علاقتنا كده حرام.. أنا كده غريب عنك يعني مينفعش نتقابل كل شوية من غير أي علاقة رسمي.. و....

انتابتها حالة من الذعر الحقيقي وهي تستمع لحديثه.. هل هذا هو "كريم" الذي

أحبته، والذي قضت معه أجمل سنوات عمرها.. أي حرام هذا الذي يتحدث عنه إنه لم يختلِ بها ولا مرة واحدة فكل لقاءاتهما في أماكن عامة وسط الناس.. حتى القبلاتَ التي تبادلاها في بعض المرات كانت قبلات خاطفة.. ثم ماذا يعني أنه ليس بحاجة إلى عملها.. أليس هو من وافق على هذا الشرط من شروطها عندما قررا الارتباط!! كانت كل تلك الأسئلة تدور في ذهنها وهي تنظر إليه بعينين ذاهلتين ودموع حائرة تتردد في السقوط..

- ساكتة ليه؟ عايز أسمع منك رد حالا.. أيوه ولا لأ؟ ولا بعد سنتين ونص بنعرف بعض لسه عايزة وقت تفكري؟

كانت نبرته حادة لم تعهدها وكأنه قد اتخذ قراره بالفعل قبل أن يفاتحها مجددا في أمر الزواج..

- لا مش عايزة وقت أفكر ولا حاجة.. أنا موافقة خلاص يا كريم إننا نتجوز بعد شهر زي ما أنت عايز.. حدد اليوم اللي يعجبك..

كانت دموعها قد بدأت في الانهمار معلنة هزيمتها أمام تعنته هذه المرة.. وكأنها تصدر بموافقتها شهادة وفاة أحلامها.. ولكن أملا ما كان يرفرف في قلبها كعصفور صغير يمنيها بحياة مليئة بالحب والسعادة مع من اختاره قلبها.. فهي وبالرغم من كل شيء كانت لا تزال تحبه في ذلك الوقت.. كما أنه أصبح كل من تبقى لها في هذه الحياة..

(11)

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً.. بدا المبنى بنوافذه الزجاجية العاكسة الذي يقع في أحد الشوارع الرئيسية بمدينة نصر كقلعة حصينة غامضة.. وفي إحدى غرف مكاتب ذلك المبنى العملاق جلس "طارق منير" يطالع بعض الأوراق قبل أن يرن الهاتف الموضوع على مكتبه.. رفع السماعة ليجيب على المتصل وهو لا يزال مستغرقا في قراءة بعض السطور..

- أيوه يا فندم.. حاضر.. تمام يا فندم.. هجهز كل الملفات وآكون عند حضرتك كمان ربع ساعة..

وضع "طارق" السماعة وهو يلملم في الأوراق المتناثرة أمامه ويعيد ترتيبها في الملفات من جديد.. تأكد من أنه لم يغفل شيئا ولم ينس أي ورقة من الأوراق.. ثم حمل الملفات وخرج من مكتبه سائرا بخطوات ثابتة وحثيثة في الردهة الطويلة التي يقع بها مكتبه في أحد طوابق المبنى..

تخطى أربعة أبواب ثم وقف وهو يشد قامته أمام الباب الخامس وطرقه مرة واحدة.. ثم فتح الباب ودلف إلى الحجرة..

كان صاحب المكتب رجلا يبدو عليه أنه قد تخطى الستين من عمره ببضع سنوات يجلس خلف مكتب خشبي كبير من الطراز الكلاسيكي عليه بعض الملفات المرتبة بانتظام.. ويعتليه طقم مكتب من الأبنوس المطعم بالعاج.. و"أباجورة" مكتب تسلط ضوءها الخافت على بعض الأوراق التي كان يطالعها ذلك الرجل باهتمام بالغ..

- تمام يا فندم..

قالها طارق بثبات وهو يؤدي التحية العسكرية لذلك الرجل.. وظل واقفا في انتظار إما إذنا بالجلوس أو استلام ما يحمله من ملفات ثم تلقي تعليمات ما..

رفع الرجل عينيه عن الأوراق التي كان يطالعها وقال بصوته العميق الواضح النبرات..

- أهلا يا طارق.. تعال نقعد في الصالون عشان نعرف نتكلم على راحتنا.. فيه شغل كتير لازم نرتب له النهارده.. الوقت بيجري ولازم نكون مستعدين لكل حاجة..
- أوامرك يا فندم..

قالها "طارق" وهو يتجه ناحية الصالون الملحق بحجرة المكتب والمكون من كنبة جلدية واسعة وأربعة مقاعد جلدية موزعة على جانبي الكنبة.

جلس الرجل على طرف من أطراف الكنبة في حين جلس "طارق" على أحد المقاعد المجاورة لذلك الطرف.. ثم بدأ في سرد بعض المعلومات التي كانت في حوزته.. والتي كتبها تفصيليا في التقارير التي تحتوي عليها الملفات..

تناول الرجل الملفات ثم وضعها على الطاولة الرخامية المستطيلة التي تتوسط مقاعد الصالون وهو يسأله.

- خطتك إيه للأيام الجاية؟ واخترت مين يساعدك في الشغل المطلوب؟!

سرد "طارق منير" بعض الأسماء التي لم تتعد العشرة أسماء.. والتي كان اسم "رفيف" من بينهم.. تعمد أن يكون الاسم الأخير في قائمة الأسماء التي عرضها على الرجل لكي يتمكن من ذكر تلك المعلومة التي قد تكون ذات أهمية ما..

- وأنا بكلم رفيف النهارده الصبح على "فيس بوك" يا فندم لاحظت إن من ضمن أسماء الأصدقاء اللي كاتبين تعليقات على واحد من منشوراتها العقيد حازم صقر أول مرة آخد بالي إنه صديق عندها لأنها خافية قايمة الأصدقاء.. فمش عارف المعلومة دي هنحتاج لها في أي حاجة في الشغل بتاعنا ولا رأي حضرتك إيه؟!

- خليك إنت حلقة الوصل ما بيننا وما بينها.. عشان المعلومات تبقى دقيقة وتوصل لمصدر واحد بس كاملة.. ده المهم.. إن المعلومات تبقى دقيقة ومتكاملة.. وإنت بتتابع معاها من فترة.. خليك ماشي زي ما انت..

- تمام يا فندم.. أي أوامر تانية حضرتك؟

- من بكرة عايز تقرير يومي على مكتبي بكل التطورات والمستجدات.. ومتنساش مهم جدا تركز في موضوع سعد التهامي.. وترصد تحركاته اليومين اللي جايين.. عايزين نعرف بيتقابل مع الواد بتاع جماعة أبو سفيان فين وبيتفقوا على إيه؟ لازم المعلومات دي تكون عندي في أسرع وقت وقبل يوم 28 بوقت كفاية..

- أوامرك يا فندم.. اسمح لي استأذن أنا.. وكله هيكون زي ما سعادتك أمرت..

غادر "طارق منير" مكتب الرجل عائدا إلى مكتبه.. وما أن وصل إليه حتى ضغط أحد الأزرار الموضوعة فوق مكتبه، وما هي إلا دقائق وسمع طرقا على باب الغرفة.. فقال بصوت مسموع..

-ادخل..

فتح باب الغرفة وتقدم ناحيته أحد المجندين في زي مدني..

- اعمل لي قهوة يا ابني بس بسرعة..

انصرف المجند من الغرفة التي ما أن أغلق بابها حتى غرق "طارق" في بحر أفكاره العاتية.. وهو يهمس لنفسه متأففا بصوت خفيض..

- كنا ناقصين كمان سعد التهامي.

أخرج بعض الأوراق البيضاء من أحد أدراج المكتب وبدأ في تدوين بعض الملاحظات عن المهام التي أوكلها إليه الرجل..

في ذلك الوقت كان الرجل يجري اتصالا هاتفيا مع أحدهم.. الذي ما أن وصل

صوته إليه عبر الهاتف حتى رحب به ترحيبا شديدا وحميما..

- أهلا أهلا بالبطل.. عايزين نشوفك قريب..

- أهلا سعادة الباشا.. والله وأنا كمان عايز أشوفك طبعا شوف سيادتك فاضي إمتى أمر على معاليك..

- أنا كل يوم في المكتب يا حازم.. نخلي الموعد بعد يومين الساعة 12 الضهر..

- الساعة 12 بالدقيقة هتلاقيني عند سيادتك.. مع السلامة يا فندم..

كان "طارق منير" يحتسي قهوته وهو ما زال ممسكا بقلمه المفضل يضع الخطوط العريضة لخطة عمل الأيام المقبلة.. وفي منتصف أحدى الأوراق كتب "رفيف" بخط كبير.. ثم أخذ يرسم دوائر متداخلة وهو يفرك عينيه من الإرهاق.. أمال رأسه إلى الوراء مغمضا عينيه عله يستعيد بعض نشاطه كي يتمكن من إنجاز العمل المطلوب منه قبل أن يطلع النهار.. وهو يقول بصوت خفيض كعادته حين يتحدث إلى نفسه بأمر يريد أن يبقى على حافة ذاكرته حتى لا يضيع منه في متاهاتها المغرقة في الزحام..

- ساعدتينا وساعدتي البلد كتير يارفيف..

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يستعيد ذكرى ذلك اليوم الذي التقاها فيه لأول مرة.. عندما حدد لها موعدا في مكتبه هذا.. أبلغه أحد المجندين المنوطين بحراسة المبنى بوصولها.. كانت قد وصلت قبل الموعد المحدد بعشر دقائق قضتها في قاعة انتظار الزوار..

استلم منها أحد أفراد تأمين المبنى رقمها القومي وهاتفها المحمول بعد أن أغلقته وسلمها بطاقة زائرين.. تماما كما حدث في تلك المرة التي ذهبت فيها المبنى الآخر الذي التقت فيها النقيب "يسري"..

وما أن دقت الساعة الثانية عشرة ظهرا حتى طلب منها أحد المجندين أن تتبعه إلى مكتب الرائد "طارق منير"..

طرق المجند باب غرفة المكتب عدة طرقات ثم فتح لها الباب لتجد "طارق منير" يتوجه إليها لاستقبالها بحفاوة غير مبالغ فيها وهو يمد إليها يده لمصافحتها..

أشار إليها بالجلوس على أحد المقاعد المواجهة لمكتبه.. وجلس هو على مقعده خلف المكتب ليبدأ طرح ذات الأسئلة عليها من جديد.. وهي تجيبه ذات الإجابات.. ذات الإجابات تعني أن روايتها حقيقية لا يشوبها شائبة.. فلو كانت قصتها مختلقة لاختلفت إجاباتها فمهما يكن الشخص الكاذب بارعا في كذبه إلا أنه دوما ما ينسى بعض التفاصيل فيما يختلقه من أحاديث وحكايات.. قد تزيد أو

تنقص هذه التفاصيل.. ولكنها أبدا لن تكون ثابتة على حالها.. وكان صدق روايتها هو أول طريق بناء جسر من الثقة بينها وبينه..

بعدما انتهى من حديثه معها حول أمر حافظة النقود تلك، وبعد أن تأكد من مطابقة إجاباتها التي قالتها بنفسها في ذلك اللقاء بما ورد إليه في التقرير الذي أسلمه النقيب "يسري" إياه مرفقا بحافظة النقود.. ابتسم لها ابتسامة شكر حقيقية وهو يقول لها..

- الحقيقة مش عارفين نشكرك إزاي.. اللي إنتي عملتيه ده أنقذ حياة إنسان.. الظابط ده فعلا كان مستهدف من بعض العناصر المتطرفة.. واللي كانوا موجودين في اعتصام رابعة.. لأنه كان من الظباط اللي شاركوا في فض الاعتصام.. الحمد لله بفضلك بعد فضل ربنا لحقناه ونقلناه كمان من مكان خدمته عشان نحميه.. وقبضنا كمان على المتطرف صاحب الرقم القومي اللي لاقيناه في المحفظة..

تورد وجهها وهي تأخذ نفسا عميقا دلالة على الراحة التي شعرت بها.. حين سمعت هذه الأخبار السارة وأجابته وهي تبتسم ابتسامة خجلى..

- لا شكر على واجب.. وأنا معملتش غير الواجب. وأي حد مكاني كان هيعمل اللي أنا عملته..
- اممم.. هو الحقيقة للأسف مش كل الناس ممكن تعمل.. ولو كانت كل الناس بتعمل ده فعلا مكنتش البلد وصلت للحال اللي هي فيه..

أطرقت "رفيف" رأسها لأسفل قليلا.. علامة على الأسف والموافقة على الحقيقة المرة التي أعلنها لتوه..

- حضرتك معاك حق.. بس أنا مكنش ممكن ينفع معملش حاجة وأنا حاسة إن فيه إنسان حياته في خطر.. وخصوصا يعني لما يكون ظابط جيش ضحى براحته ووقته وساب بيته وولاده وعرض حياته للخطر عشان يحمي البلد ويحميني ويحمي كل مصري من إرهاب المجرمين دول..

نظر لها "طارق" نظرة امتنان حقيقية وكأن لسان حاله يقول.. أخيرا هناك من يقدر ما نقوم به من أجل حماية هذا الوطن والحفاظ عليه من أعدائه.. ثم بدأ يطرح عليها بعض الأسئلة في موضوعات مختلفة عامة على سبيل التعارف والدردشة..

كانت تجيبه في تلقائية وعفوية وصدق وتفاعل أيضا مع ما تتطرق إليه من موضوعات.. في الوقت الذي كان هو يسجل في ذاكرته جميع انفعالاتها ونبرات صوتها وأسلوبها في الحديث لتقييمها تقييما دقيقا لأمر ما خطر في ذهنه أثناء حديثهما..

في نهاية اللقاء سألها ببساطة كصديق وليس ضابطا في الأمن الحربي..

- يا ترى عندك حساب على "فيس بوك"؟

رفعت رفيف حاجبيها في اندهاش.. وهي تجيبه بابتسامة متعجبة وبنبرة فاقت بساطتها بساطة سؤاله..

- أكيد طبعا.. الناس كلها في مصر بقى عندها حساب على "فيس بوك"..

هز رأسه إيجابا.. ثم أمسك بأحد الأقلام الموجودة على مكتبه وعلى إحدى الوريقات الصغيرة دون لها اسم حسابه على "فيس بوك" والبريد الإلكتروني الخاص به طالبا منها إضافته..

التقطت منه الوريقة وهي تنهض من على المقعد.. وقرأت الاسم ثم نظرت إليه نظرة ذات مغزى.. فقال لها مبتسما..

- إنتي عارفة إن مينفعش أكتب اسمي الحقيقي على "فيس بوك".. دواعي أمنية مش أكتر.. المهم.. هستنى منك إضافة في أقرب وقت ولو فيه أي حاجة حابة تبلغيني بيها ابعتيلي رسالة إنبوكس.. بس من هنا ورايح اتعودي دايما تحذفي كل الرسايل اللي بتبعتيها أو اللي بتستلميها بعد ما تقريها طبعا..

اومأت له برأسها إيجابا واستياعبا وهي تصافحه شاكرة إياه على حسن استقبالها وعلى كل ما يبذلونه من تضحيات فداء للوطن.. رافقها إلى باب غرفة المكتب.. مودعا إياها بابتسامة ودودة..

(12)

كان "وليد" يلتهم الطعام بتلذذ ونهم و"أحمد" يتأمله بابتسامة إشفاق عليه من وحدته التي اختارها بنفسه لنفسه.. رفع "وليد" عينه فجأة ناظرا إلى "أحمد" ثم قال له ضاحكا..

- إيه يا ابني إنت باصص لي في الأكل كده ليه؟ مش ناقص عينيك دي كمان..

- إنت صعبان عليا بجد يا وليد.. هو أنت مش صعبان على نفسك؟!

- صعبان عليك ليه بقى إن شاء الله.. شايفني بعين واحدة ولا مشلول وأنت داير بيا على الدكاترة.

أجابه وهو لا يزال يضحك ضحكات ساخرة متتالية وكأنه لم يضحك قط في حياته..

- صعبان عليا من اللي أنت عامله في نفسك.. أنا صاحب عمرك يا وليد يعني أقدر أحس باللي جواك من غير ما تتكلم.. ببقى عارف إمتى بتضحك عشان متصرخش.. أنا حاسس بالوجع اللي أنت بتحاول تدفنه جواك.. حتى لو متكلمتش عنه.. بس مش عارف ليه سايب نفسك لكل ده.. ليه مش بتحاول ترجع وليد من تاني.. فاكر وليد..

كانا قد فرغا من الطعام حين هم "وليد" بالرد عليه ولكنه وجد النادل مقبلا ناحيتهم لتنظيف الطاولة فآثرا الصمت حتى يؤدي مهمته ويبتعد عنهما بمسافة كافية.. استغرق النادل دقائق معدودة لحمل الأطباق الفارغة من على الطاولة ولملمة أدوات الطعام من ملاعق وسكاكين سائلا إياهما وهو على وشك الانصراف من أمامهما إذا كان يرغبان في احتساء أي مشروب.. فطلب "وليد" فنجانا من القهوة التركي السادة.. وطلب "أحمد" شايا بالنعناع..

أشعل "وليد" سيجارة وأخذ نفسا منها وهو يرفع رأسه لأعلى ثم اعتدل في جلسته لكي يكون في مواجهة صديقه وهو يحادثه..

- علشان أرجع زي ما كنت يبقى لازم الأول حاجات كتير أوي ترجع زي ما كانت.. ولا أنت مش عايش معانا في الهم اللي إحنا فيه في البلد.

- ما الهم ده كلنا فيه يا وليد زي ما قلت بس الناس عايشة أنت كمان لازم تعيش وتحاول تتأقلم على الوضع الجديد..

- عايزني أعمل إيه يعني عشان أعيش زي الناس ما هي عايشة.. وبعدين ما أنا عايش أهو.. بشتغل وباكل وبشرب وبخرج مع صاحب مزعج زيك طول الوقت بيتكلم كلام فارغ.. عايش يا أحمد عايش.. لكن تقولي أتأقلم على اللي إحنا بقينا فيه لأ.. مش هيحصل.. لأني رافضه.. وعمري ما هقدر أقبله ولا هضحك على نفسي زيكم عشان أعرف أقبله.. أنا مش هرتاح إلا لما أرد اعتباري.. وأرد اعتبارنا كلنا يا أخي..

كان صوت "وليد" بدأ يشوبه بعد الحدة والعصبية وهو يقول كلماته الأخيرة.. في حين أطرق "أحمد" رأسه أسفا علامة على صحة كل ما يقوله الأول ثم تنهد بعمق وكأن الحقيقة نكأت جرحا عميقا في نفسه.. جرح كان يحاول جاهدا أن يفتعل نسيانه أو تجاهله حتى يتمكن من الاستمرار والمواصلة في حياة لم تعد

كسابق عهدها ولكن ما من بدل عن العيش فيها..
أشعل "وليد" سيجارة أخرى وأخذ ينفث دخانها على مهل كعادته وهو يرتشف قهوته..موجها حديثه لصديقه بعدما زفر بعضا من همومه في الهواء مع دخان سيجارته..

- سيبك من الهم والنكد ده، وخلينا في المهم أعدي عليك يوم التلات أخدك في طريقي ولا تجيلي على بيت الدقي..

- ده أنت بجد مصمم إني أروح معاك.. عايزني عزول يعني.. وبعدين ما يمكن مروة تتضايق لو رحت معاك..

قاطعه "وليد" ضاحكا ليحسم أمر مرافقته له في هذا اليوم..

- لا اطمن مش هتتضايق أنا اتصلت بيها خلاص وقلتلها إنك هتكون معايا.. وأنت عارف هي متقدرش ترفض لي طلب.. وبعدين بالمرة تشوف أمي كمان ما إحنا هنروح لها الأول.. تلاقيها زعلانة منك عشان مبتسألش عليها..

رفع "أحمد" حاجبيه تعجبا واستنكارا..

- زعلانة مني أنا!.. مش بعيد تكون واخدني معاك عندها عشان أصالحك عليها.

في طريق عودته لمنزله أجرى "وليد" بعض الاتصالات الهاتفية..
- علاء باشا مساء الورد والياسمين.. أتمنى مكونش أزعجتك باتصالي.. والله كان ليا طلب كده.. هو طلب شخصي.. أنا عارف طبعا إنك كنت في العملية الأخيرة اللي استشهد فيها الرائد ماجد مرقس الله يرحمه.. طيب كنت عايز أقابلك أي وقت يناسبك.. تمام.. أشوفك على خير.. سلام..

- آلو.. مين إيه.. ما تركز شوية يا ابني.. أنا المقدم وليد سامي.. بكرة الصبح من بدري عايزك تكون موجود قدامي في مكتبي عايز أعرف بعض التفاصيل منك عن العملية اللي طلعتوها مع الشهيد ماجد.

- مساء الورد والفل والياسمين على عيونك يا حبيبتي.. وحشاني جدا والله.. سامحيني يا ست الكل والله طالع عيني في الشغل.. ما أنتي عارفة القرف اللي إحنا بنشوفه كل يوم.. هكون عندك يوم التلات على الغدا بس خليه متأخر شوية يعني الساعة 5 مناسب وهجيب معايا أحمد حسن وحشه أكلك.. طبعا مقدرش يا حبيبتي أقضي اليوم ده بعيد عنكم.. وهجيب معايا شوية هدوم محتاجين غسيل ومكواة.. متحرمش منك أبدا.. ربنا يديلك الصحة والعمر.. بوسيلي نهلة وخليها تبوسك كتير لغاية ما أشوفكم وأبوسكم بنفسي.

أجرى اتصالا أخيرا.. ولكن لم يتلق أي رد.. عاود الاتصال.. أيضا بلا رد.. أوقف سيارته على جانب الطريق.. ثم شرع يكتب رسالة على "فيس بوك"، انتهى من

إرسالها.. وأخذ نفسا عميقا وكأنه يستعيد به حياة قلبه مرة آخرى.. وانطلق بسيارته وابتسامة هادئة ترتسم على شفتيه..

(13)

كعادتها شبه اليومية.. تتصفح ما تم نشره من أخبار وتعليقات على "فيس بوك" في تلك الساعة المتأخرة من منتصف الليل.. لا تزال السجالات قائمة بين الجميع حول الأوضاع السياسية الراهنة وحول الحرب الدائرة في سيناء.. وحول موقف الدولة من جميع ما يحدث والذي يراه البعض تراخيا.. والبعض الآخر يراه تكتيكا استراتيجيا.. الاختلاف في كل شيء أصبح هو سيد الموقف.. والخلاف بات هو شاهد العيان الرئيسي على الجميع..

وجدت إشعارا على الرسائل أعلى الصفحة في اليمين ينبئها بوجود رسالة واحدة.. لم تعر الأمر اهتماما هذه المرة.. وأجلت فتح صندوق الرسائل لحين الانتهاء من قراءة التعليقات على صفحة حسابها الخاص.

كتبت منشورا جديدا قبل أن تذهب لقراءة تلك الرسالة التي تنتظرها هناك وحيدة.. "طوبى لغرباء هذا الوطن.." ثم وقعت باسمها "رفيف".. كما عودت أصدقاءها في بعض المنشورات المماثلة.. والتي تعبر عما يجول في نفسها من مشاعر في بعض الأحايين ومن أفكار ووجهات نظر خاصة جدا في أحايين أخرى..

ضغطت على إشعار الرسالة وما أن قرأت اسمه حتى خفق قلبها كعصفور صغير يحاول الطيران.. فتحت صندوق الرسائل لتتمكن من قراءة الرسالة كاملة..

"إيه يا قطتي فينك، وحشتيني.. يعني أهون عليكي أكلمك إمبارح مرتين ومترديش عليا.."

أسرعت رفيف نحو هاتفها المحمول لترى المكالمات الفائتة.. وجدت اسمه على شاشة الهاتف.. تذكرت أنها ضبطت الهاتف على وضع "صامت" قبل أن تغفو لحاجتها إلى نوم مريح لعدد متواصل من الساعات.

ترددت للحظات قبل آن ترسل إليه ردا.. وكآنما آرادت آن تتآكد قبل كتابة حرف واحد أنها تمكنت من كبح جماح قلبها.. أخذت نفسا عميقا وكأنها على وشك خوض معركة حاسمة لا مجال فيها للخطأ..

- بونجور وليد.. معلش مكنش ليا مزاج أرد ولا أنت فاكر إنك أنت بس اللي من حقك متردش على اتصالاتي ولا على رسايلي.. ومكنتش ناوية أرد كمان على رسالتك دي.. لكن رديت عشان أقولك إني إمبارح شفت اتصالاتك فعلا بس مكنتش عايزة أرد عليك..

جاءها الرد أسرع مما تتوقع..

- وأنا اللي كنت فاكر إني وحشتك زي ما وحشتيني..

- وليد أنت عايز إيه مني.. نفس الكلام اللي بتقوله كل مرة.. ونفس التصرفات هي هي.. تظهر وبعدين تختفي.. تقرب وترجع تبعد.. أنا مش واحدة من الستات والبنات اللي واقفين طابور في حياتك مستنيين إشارة منك عشان تتعطف عليهم.. ومش هكون يا وليد.. فاهم مش هكون واحدة منهم أبدا..

- والله أنتي ظالماني أنا مافيش في حياتي ولا في قلبي ست غيرك يا مستبدة.. وكل الستات والبنات اللي أنتي شايفاهم على "فيس بوك" دول أنا معرفش ولا واحدة فيهم معرفة شخصية.. ده أنا زي ما أنتي شايفة حتى مبردش على تعليقاتهم على أي بوست بكتبه..

ولكن هذه المرة لم تفلح محاولاته في استمالة قلبها ككل مرة.. وكأنها بالفعل كانت قد عزمت على أمر ما.. واتخذت قرارا لتنفيذه مهما كلفها من عذاب ودموع..

- وليد.. أنا مضطرة أقفل دلوقتي.. معلش أصلي كنت خارجة ومش عايزة أتأخر عن ميعادي.. نبقى نتكلم بعدين..

- رايحة فين وهتقابلي مين؟

- وهو أنا بعرف أنت رايح فين ولا بتقابل مين؟ وأصلا لو سألتك مش هتقول.. أنا حتى مبعرفش عنك حاجة لما بتغيب بالأيام..

- رفيف أنتي عارفة كويس إني بغير عليكي وبجنون كمان..

- بتغير عليا ليه يا وليد؟.. يا ترى هلاقي إجابة عن السؤال ده ولا هيفضل سؤال من غير إجابة زي أسئلة كتير..

- خلاص اعملي اللي أنتي عايزاه يا رفيف.. سلام..

همت رفيف بإغلاق متصفح الإنترنت.. ولكنها كتبت منشورا قبل أن تغلقه كانت على يقين من أن "وليد" سيقرأه قبل أن يعاود الغياب مرة أخرى عن عالمها..

" الحماقات قد توقعنا في الحب" والحماقات أيضا هي التي تخرجنا من جنته".. ثم ذيلته باسمها..

أغلقت حاسوبها المحمول وهي تغالب دموعا تتزاحم على حافتي مقلتيها.. وعلى شفتيها ابتسامة مرتعشة لانتصار زائف لا يجرؤ على الإعلان عن هزيمته.. وذاكرة توقف الزمن بها عند ذلك اللقاء وتلك الأمسية..

في اليوم التالي لحفل تكريم مصابي الشرطة الذي التقت به لأول مرة.. وجدت رسالة منه على صندوق رسائلها مرفق به بعض صور الحفل.. يقول لها فيها..

"لو أعرف إنك هتكوني موجودة في الحفلة كنت وصيت اللي بيصور يصورك صورة لوحدك عشان تفضلي قدام عيني طول الوقت.. مع إني من ساعة ما شفتك وصورتك مفارقتش خيالي.. صحيح قبل ما أنسى.. صورة البروفايل بتاعتك حلوة أوي.. اسمحي لي ححتفظ بيها عندي.. عشان كل ما توحشيني أبص لصورتك وأقولها وحشتيني.. وحشتيني"..

عندما قرأت رسالته أحست وكأن قلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها ليحتضن هذه الكلمات التي ليست أي كلمات.. لا تتذكر عدد الذين قالوا لها كلمات إعجاب.. لا تحصي عدد من باحوا لها بحبهم.. كثيرون هم ولكنها لم تكن تبالي.. بل لم تكن تسعد بتلك الكلمات كما تسعد بها النساء الأخريات.. فما وسع قلبها أن يفعل بكلمات كسائر الكلمات..

أعادت قراءة رسالته مرات ومرات وفي كل مرة كانت تشعر بأن خطرا ما يتربص بقلبها الذي تهاوت جميع قلاعه أمام هذا القادم من المجهول.. ولكنه كان شعورا لذيذا سرى كالخدر في أعصابها..

كادت أن ترسل إليه ردا تشكره فيه على كلماته الرقيقة، ولكنها بدلا من ذلك أرسلت إليه طلب إضافة.. وانتظرت دقائق عله يقبلها.. ولكن لاشيء.. مرت ساعات، راجعت فيها إشعارات حسابها عدة مرات علها تجده قبل صداقتها.. ولكن لا أثر له.. وكأنه أبدا ما كان هناك.. فألغت طلب صداقتها.. حتى وجدت رسالة أخرى منه في اليوم الذي يليه..

"معلش آسف أنا لما شفت طلب الإضافة بتاعك ملحقتش أقبله لأني بعد ما بعتلك الرسالة إمبارح استنيت منك رد ولما مردتيش اضطريت أقفل علشان كان عندي شغل كتير.. وكنت هقبله فورا أول ما أرجع أدخل على صفحتي بس لاقيتك لاغيتيه فقلت أبعتلك أنا بنفسي.. أنا كنت عايز أطلب منك ده في رسالتي إمبارح بس كنت خايف تحرجيني"..

ثم في سطر آخر.. كتب لها كلمات من قصيدة لنزار قباني انتقاها بعناية وكأنها باقة ورد يهديها عاشق لمحبوبته في أول موعد غرامي بينهما..

"من يوم طرقت الباب عليا ابتدأ العمر"..

ثم أفلت شمس كلماته عن صندوق رسائلها كما أشرقت، على وعد بلقاء بلا ميقات معلوم.. وما بين طلوع شمس حروفه على صندوق رسائلها وغروبها عن أيامها.. وما بين الغياب والحضور.. كان يبقيها دائما على حافة الانتظار ترتشف كلماته كخمر معتق وتتجرع كؤوس غيابه حتى الثمالة..

كان يتقن فن الصيد ببراعة، كما كانت تتقن فن الصبر بكبرياء..

(14)

في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا كان "حازم صقر" في مكتب ذلك اللواء الذي اشتهر في الجهاز الأمني السيادي الذي يترأسه بلقب الثعلب الجسور لما يتمتع به من دهاء ليس له مثيل بين نظرائه.. ولما يتميز به من قدرة فائقة على وضع الخطط المحكمة التي تمكن العناصر المخابراتية من تسديد الضربات الاستباقية لأعداء الوطن.. الأمر الذي جعل منه أسطورة في ذلك العالم الخفي على مستوى العالم أجمع..

كان رجال مخابرات الدول الصديقة والمعادية كذلك يقدرون عقليته حق قدرها في الوقت الذي يهابون فيه ذكاءه المتقد وسرعة بديهته التي كانت تربك البعض وتثير حنق البعض الآخر لإفشاله مخططاتهم المستمرة والدنيئة ضد الوطن..

كانت الحفاوة التي استقبل "حازم صقر" بها تشي عن مكانة خاصة يحتلها حازم في نفس ذلك الرجل..

- أخبارك إيه يا حازم.. طمني على أحوالك.. أرجو تكون أمورك كلها تمام..

- الحمد لله كله تمام يا ريس.. إحنا ماشيين على توجيهات سيادتك..

- عظيم جدا.. ربنا يوفقكم.. بقولك يا حازم فيه موضوع كنت حابب أشركك فيه.. أنا عارف طبعا إن المسؤوليات اللي أنت شايلها كتير الأيام دي بس المهمة اللي هكلفك بيها مش هتتعبك.. خصوصا إنك طلعت تعرف العنصر اللي هتشتغل عليه.. واللي هيبقى مطلوب منك تتابعها من بعيد لبعيد.. لأن مهم أوي يا حازم زي ما أنت عارف إنها متحسش إنك بتتابعها..

قطب "حازم صقر" جبينه بلا وعي كعادته عندما يفكر في أمر جاد أو محير.. كان يحاول أن يتعرف على من تكون هي تلك التي يتحدث عنها الثعلب الجسور أو يستدعيها من ذاكرته..

لاحظ الرجل تعبيرات وجه "حازم" فأطلق ضحكة عالية مهيبة..

- عشان متفكرش كتير وتتعب دماغك اللي إحنا محتاجين لها الأيام الجاية تكون صاحية لكل حاجة بتحصل.. انت عارف الأيام الجاية خطيرة واللي بيتم تدبيره ضد البلد أخطر من إننا نغفل ولو للحظة عنه..

ثم استدرك قائلا وقد أحس أن الفضول استبد بحازم لكي يعرف مين هي تلك التي من أجلها استدعاه اليوم الثعلب الجسور إلى مكتبه.

- رفيف.. رفيف سليم ذو الفقار..

وجم "حازم" وقد فغر فاه وبدا على عينيه الدهشة المشوبة بالذهول والقلق.. وهو يلقي بسؤاله بوجل وكأنما يخشى أن تأتيه إجابة تلقي به من سابع سماء لسابع أرض..

- هي رفيف من الخونة يا فندم؟!

لم يتمالك الرجل نفسه من الضحك فعلا صوت ضحكته هذه المرة عن سابقتها ثم أمسك عن الضحك وكأنه ما كان يضحك قط ولا يزال أثر ابتسامة ذات مغزى مرتسمة على وجهه ذي الملامح التي تتسم بالدهاء..

- رفيف بتتعاون معانا عن طريق رائد في الجهاز اسمه عرفت منه إنك من ضمن أصدقائها على "فيس بوك".. فحبيت إنك تتابعها وتطمنا أكتر من ناحيتها.. لأنها عنصر نشيط جدا ومتحمس كمان.. ومن الواضح إنها عايزة تساعد البلد باللي تقدر عليه،.. بس زي ما قلتلك هي مش لازم تعرف إنك عرفت حاجة عن شغلها مع الظابط بتاعنا لأسباب هحتفظ بيها لنفسي في الوقت الحالي..

انفرجت أسارير "حازم" وكأن الرجل نطق بحكم البراءة على عزيز له كان على وشك اتهامه بجرم فادح..

كان الرجل يقرأ ما يجول في خاطر "حازم" فبادره بنبرة جادة ليسترعي انتباهه مرة أخرى للحديث..

- أنا هطلب الرائد طارق يجيي مكتبي ويقعد معاك يكلمك عن طبيعة شغلها معاه.. وفي موضوع تاني هو هياخد رأيك فيه لأنك كنت رصدت معلومات عنه في وقت ما.. أبو سفيان الأنصاري.. أنت عارف إن الراجل ده من العناصر اللي بتشكل خطورة في المرحلة اللي إحنا فيها.. وإنه كمان من القيادات اللي بتدعي للثورة

المسلحة يوم 28 نوفمبر الشهر ده..

كان "حازم" يستمع إلى الرجل بإنصات واهتمام بالغين.. وهو يسجل في ذاكرته أدق التفاصيل التي سمعها لحين يحتاج إلى استدعائها في أي وقت..

اتصل الرجل على الرقم الداخلي لمكتب "طارق" مستدعيا إياه للحضور إلى مكتبه.. وما هي إلا دقائق وكان "طارق منير" قد انضم إليهما ليبدأ اجتماع جديد امتد نحو أربع ساعات متواصلة..

(15)

استيقظت "مروة" مبكرا على غير عادتها منذ أن عادت من لندن لتستقر نهائيا في مصر.. وقفت أمام خزانة ملابسها حائرة أي الفساتين ترتديه في المساء.. يجب أن تبدو في أجمل وأبهى صورة.. بالرغم من أنه لن يأتيها وحده ولكن يكفي أنه سيراها بعد سنوات غياب لكي يصبح شغلها الشاغل في ذلك اليوم.. الفستان.. تسريحة الشعر.. العطر الذي ستضعه.. والذي يفضله "وليد".. ما زالت تتذكر نوع العطر الذي كان يفضل أن تتعطر به وهي بين ذراعيه.. شرد ذهنها وهي تمسك بأحد فساتينها تستعرضه على جسدها أمام المرآة،..

تذكرت تلك الليلة من ليالي الشتاء في أواخر عام 1999.. كانت لا تزال تضع رأسها على كتف "وليد" وهو يحيطها بذراعه بعدما انتهى منها ثم سألته بنبرة مداعبة وهي تمسك بعض شعرات من صدره برفق بين أناملها..

- أنا عايزة أقولك حاجة بس خايفة تكون اتعودت عليا أو حبتني وتزعل من الكلام اللي حقوله..

أجابها بلا اكتراث حقيقي وهو يشعل سيجارة.. وكأنها تخاطب رجلا آخر غيره..

- أولا إحنا اتفقنا إن مافيش حب بيننا ولا حتى تعود وأنتي عارفاني راجل بلتزم

بكلمتي واتفاقي.. ثانيا وده الأهم يا مرمورتي الحلوة آنا عمري ما أقدر أزعل منك أبدا.. عايزة تقولي إيه؟

بذلت مجهودا مضنيا كي تخفي آثار خيبتها التي أصابت أحلامها في مقتل.. أحست برعشة خفيفة تسري في كيانها لكن أين هذه الرعشة من تلك التي كانت تغمرها منذ دقائق قليلة وجسدها يعزف مقطوعته الختامية في تلك السيمفونية التي كانت دوما ما يتقن "وليد" عزفها على أوتارها.. وأجابته وهي تبتلع ريقها وكأنها قررت الانتحار بسم زعاف..

- طيب تمام كده طمنتني.. أنا قررت أتجوز.. الشيخ الخليجي اللي كنت كلمتك عنه اللي اشترى القناة الفضائية اللي أنا بشتغل فيها.. واللي كنت طلبت منه أشتغل مذيعة.. عرض عليا الجواز وأنا وافقت.. فرصة مينفعش أضيعها من إيدي.. هبقى مذيعة زي ما كنت بحلم وفي قناة فضائية ملك جوزي.. وهلف العالم كمان.. هو عنده شركات وبيزنس كبير في لندن..

كان يستمع إليها بهدوء ولا كأن الأمر يعنيه لا من قريب ولا من بعيد.. وهو لا يزال ينفث دخان سيجارته في الهواء في لذة لا تضاهيها سوى لذة الدقائق التي سبقت إشعاله للسيجارة عندما كان يشعل الحريق في أعصابها.. في حين كانت هي تزدرد أوجاعها التي ساقتها إليه وهي تخبره بطلب "عدنان" للزواج بها..

عندما فاجأها "عدنان" ذاك الصباح بعرضه.. طلبت منه مهلة للتفكير.. كانت تتمنى وهي تروي على "وليد" حكايتها الملفقة أن يثور عليها.. أن يصفعها على وجهها.. ربما لم تكن تتوقع أن يعرض عليها الزواج كي يحتفظ بها في حياته بالرغم من تمنيها ذلك.. ولكنها كانت تأمل على الأقل أن يعلن عن تمسكه بها كعشيقة.. لو أنه فعل لكانت أمطرته بالقبلات واعترفت إليه بحبها الذي أرهقها كتمانه لسنوات طوال.. لكنه أدمى كرامتها بلامبالاته بها وبالأمر كله مما جعلها تسهب في روايتها وهي تعدد وتردد مميزات زواجها بعدنان على أسماعه وربما على أسماعها هي أيضا كي تتقن الدور الذي قررت أن تلعبه في تلك اللحظة.. دور الاعتذار إليه عن تلك النهاية المفاجئة لقصته معها.. والتأسف في أعماقها إلى كرامتها المسفوحة على أعتاب عدم اكتراثه..

أغمضت عينيها في استسلام وهي تلملم أشلاء ذكرياتها معه.. في حين كانت أنفاسه الحارقة تلفح وجهها وهو يتسلل برجولته المفعمة إلى شفتيها.. كانت لا تزال ممكسة بإحدى فساتينها التي ارتدتها ذات أمسية حالمة معه حين أفاقت من شرودها مع تلك الذكريات التي أدمت قلبها وأيامها معا..

كان الوقت لا يزال مبكرا في ذلك اليوم و"وليد" في مكتبه يتابع بعض سير العمل في معسكر الأمن المركزي حين دخل عليه المجند "عبدالرحمن السوهاجي" وهو يقول له بلهجته الصعيدية الواضحة..

- أوامرك يا وليد باشا..

- الأمر لله يا سوهاجي.. عايزك تقعد كده وتحكيلي بالتفصيل كل اللي حصل يوم العملية اللي استشهد فيها النقيب ماجد مرقس.. مش عايزك تنسى حاجة.. مين المجموعة الإرهابية اللي كانت في المكان اللي تمت مهاجمته.. مين اللي اتقبض عليه ومين اللي هرب منهم.. توصف لي المكان.. السلاح اللي كان هناك واتحرز.. ومين اللي ضرب نار على النقيب ماجد.. وإزاي أبو سفيان عرف يهرب.. كل حاجة يا سوهاجي.. كل حاجة..

ظل "السوهاجي" يروي له بإسهاب أدق تفاصيل العملية و"وليد" تارة يدون بعض الملاحظات على إحدى الأوراق الموضوعة على مكتبه ويحفظ البعض الآخر عن ظهر قلب في ذاكرته.. وبعد أن أتم "عبدالرحمن السوهاجي" حديثه عن العملية.. صمت لبضع ثوانٍ ليلتقط أنفاسه المتهدجة ثم أردف قائلا..

- هو ده كل اللي حصل يا وليد باشا..

- تمام جدا يا سوهاجي.. تقدر أنت ترجع دلوقتي على شغلك..

وقبل أن ينصرف "السوهاجي" من المكتب استوقفه "وليد" وهو يقول له مشددا عليه..

- سوهاجي.. مش عايز مخلوق يعرف الكلام اللي دار بيني وبينك النهارده.. فاهم..

- فاهم يا وليد باشا.. أوامر سعادتك.. تؤمر بحاجة تاني..

- الأمر لله.. تقدر تمشي أنت دلوقتي..

بعدما انصرف "عبدالرحمن السوهاجي" من المكتب ظل "وليد" جالسا في مكانه لبضع دقائق عاقدا حاجبيه وزاما شفتيه وقد نفرت عروق وجهه.. ثم اتخذ قرارا بالتوجه فورا إلى مكتب "علاء حافظ" في أمن الدولة..

لم يكن "وليد" يروق له المسمى الجديد لهذا الجهاز الأمني والذي أطلقوا عليه مؤخرا الأمن الوطني.. فكان دائما ما يتمسك بالمسمى الأصلي للجهاز في كل كلامه عنه..

استقبله "علاء" بحفاوة بالغة وهو يستعيد معه بعض الذكريات التي جمعت بينهما أثناء دراستهما معا بأكاديمية الشرطة..

- ياه والله زمان يا وليد.. ده أنت واحشني أوي بجد وكان نفسي أشوفك.. بس كنت أتمنى تبقى المناسبة اللي نتقابل فيها أحسن من كده..

- أنت كمان واحشني يا علاء.. بس أنت عارف بقى الشغل بياخدنا حتى من حياتنا.. المهم طمني عليك كل أمورك تمام..

- أنا الحمد لله تمام.. انت اللي باين عليك إن فيه حاجة وحاجة كبيرة كمان مخلياك مش وليد اللي كنا نعرفه أيام الكلية!

- أبدا يمكن بس إرهاق الشغل ما أنت عارف شغلنا مرهق أد إيه وخصوصا بعد المؤامرة اللي كلنا اتعرضنا لها.. كمان الموضوع اللي أنا جايلك علشانه شاغل بالي جدا ومحتاج لمساعدتك فيه وبصورة ودية وشخصية طبعا.. لأني عارف إنه مش هينفع بصورة رسمية..
- أنت تؤمر يا وليد.. خير فيه إيه؟!

أبلغه "وليد" بما يريده من معلومات عن "أبو سفيان الأنصاري".. وأمام إلحاحه لم يجد "علاء" بُدا إلا أن يقبل على مضض من أجل تلك الزمالة القديمة التي جمعت بينهما وللمكانة التي لا يزال يحتفظ بها للواء "نبيل سامي" عم "وليد" ولوليد نفسه بالرغم من تلك السنوات التي باعدت بينهما.. وأمام وعد من الأخير أيضا أن يكتفي بالاطلاع على تلك المعلومات داخل مكتب "علاء" حتى لا يتسبب في مجازاته في العمل..

أحضر "علاء" ملف "أبو سفيان الأنصاري" كاملا ووضعه أمام "وليد" قرأ على الغلاف الخارجي للملف اسم "محمد عبدالله جمال الدين بدوي" (أبوسفيان الأنصاري).. فقد كانت قيادات الجماعات المتطرفة في ذلك الوقت قد بدأت في استخدام أسماء مستعارة تكون مشابهة لتلك الأسماء التي كانت منتشرة في شبة الجزيرة العربية قديما إيهاما للناس منهم على أنهم يتمسكون بكل ما هو له علاقة بمن أطلقوا عليهم السلف.. وخاصة بعدما بدأ تنظيم الخلافة الدولة الإسلامية المزعومة والذي عرف عالميا باسم "داعش" في الظهور..
كان "أبو سفيان الأنصاري" واحدا من تلك القيادات التي بدأت في إذاعة أمر مبايعته من مصر لأمير "داعش" في العراق والشام.. كما كان أحد أهم القيادات التي تنظم لما أسمته تلك الجماعات بالثورة الإسلامية في مصر في يوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر.. كان عنصرا خطرا بالفعل على الأمن القومي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ مما جعل تصفيته أمرا ضروريا وحتميا.. وهو الأمر الذي كان مقررا في ذلك اليوم الذي تمت فيه مهاجمة البؤرة الإرهابية التي كان يقيم بها يوم استشهاد النقيب "ماجد".. إلا أنه علم بالأمر قبل بدء موعد

المداهمة بسويعات قليلة فاتخذ تدابيره للهروب.. لتبدأ تحقيقات موسعة في قطاع الأمن المركزي وفي الأمن الوطني أيضا عن كيفية تسريب تلك المعلومات للأنصاري.. مما يؤكد على أن الخيانة لا تزال مستمرة.. وأن العديد من مؤسسات الدولة كذلك لا يزال مخترقا من أعوان المتطرفين وأتباعهم..

بدأ "وليد" في الاطلاع على الملف وتفحصه بدقة.. الأمر الذي استغرق منه حوالي الساعتين.. كانت هناك بعض الأوراق يعيد قراءتها أكثر من مرة.. وبعض المعلومات يرددها في نفسه مرة تلو المرة حتى تظل عالقة في ذاكرته.. حتى صاح فجأة صيحة مكتومة وذاهلة وهو يقلب في أوراق الملف حين وقعت عيناه على اسم من الأسماء المتورطة في عمليات صفقات السلاح مع جماعة "الأنصاري".. رفع عينيه ذاهلا عن الأوراق وهو يسأل "علاء" الذي كان منشغلا في بعض الملفات الأخرى..

- علاء.. فيه اسم في الورق ده عايز أتأكد منك مكتوب صح ولا فيه غلط في الموضوع؟

التفت "علاء" ناحيته وقد بدا الاهتمام على ملامحه فوجود خطأ في أحد الأسماء في قضية كتلك غير وارد بالمرة ولا حتى من قبيل المصادفة..

- تقصد مين أصل الملف عندك فيه أسماء كتير!

- سعد التهامي.. سعد سيد حسين التهامي!!

- تقصد راجل الأعمال المشهور إياه اللي كان عضو في البرلمان قبل 2011.. أيوه هو.. ده بيتاجر في السلاح من زمان بس الدولة كانت سايباه ما أنت عارف بقى الحصانة اللي بتخليهم يسرقوا ويقتلوا ويمصوا دم الناس وميتحاسبوش.. والمصالح اللي بتتفق مع بعضها على حساب الغلابة.. إنما دلوقتي الموضوع بالنسبة له دخل في سكة تانية خالص.. المرة دي بقى تهديد للأمن القومي.. الفساد والخيانة طول عمرهم وجهين لعملة واحدة يا وليد..

أومأ "وليد" برأسه علامة على الإيجاب في الوقت الذي تدافعت ذكريات شتى للوقوف على أعتاب ذاكرته.. قبل أن يعاود استكمال قراءة أوراق الملف حين لمح من ضمن قائمة الأسماء التي انضمت مؤخرا لجماعة الأنصاري اسما آخر.. كان لا يزال يحفظه عن ظهر قلب.. ولا يزال يحتفظ له في ذاكرته بالعديد من الأحداث.. "كريم الصفتي" فارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه وكأن القدر أتى إليه دفعة بكل من أراد القصاص منهم.. أغلق الملف وآثار الذهول والحنق باديان على وجهه من هول وخطورة ما وقعت عليه عينيه من معلومات.. قرأ الاسم المدون على الغلاف الأمامي للملف مرة أخرى بعينيه ثم أعاد قراءته بصوت خفيض وكأنه يتأكد من أن ذاكرته لم تخنه ولم تخذله.. عاد به الاسم إلى ساحل سليم بأسيوط أثناء مداهمته لأحد الأوكار الإرهابية هناك عندما اشتعلت أحداث

الإرهاب عام 1998.. تراءى له ذلك الوجه ذو الملامح الغليظة الذي أفرغ في صاحبه طلقات مسدسه ليرسله إلى الجحيم.. "صفوت جمال الدين بدوي"..

(17)

سيظل هناك من يزرعون أيام أحبتهم غابات من الورد.. بالرغم وجود هؤلاء الذين يزرعون أيام الوطن قنابل وعبوات ناسفة.. ستظل أصوات تشدو بأغنيات الحب.. بالرغم من تلك الحناجر التي تنعق بالكراهية.. سيظل الحب هو السلطان والأمير.. سيظل هو الحاكم بأمره في ممالك العاشقين والمتحكم في قلوب المحبين..

كانت صفحات التواصل الاجتماعي تزدان بالورود والقلوب.. وكان اللون الأحمر هو سيد الموقف.. اللون الأحمر كما أنه لون الدم فهو أيضا لون الحب.. وكأن الحب في ذلك اليوم يشهر سيف التحدي في وجه كل من حرموه وحاربوه واستبدلوه بالقتل والتدمير..

كان اليوم هو 4 نوفمبر.. عيد الحب وعيد ميلاد "وليد"..

شعور مفعم بالدفء غمر "رفيف" وهي تقرأ منشورات الأصدقاء وهم يتمنون لبعضهم البعض عيد حب سعيد ويكللون كلماتهم بدعوات للوطن..

تسللت إلى الصفحة الخاصة بوليد لتترك له عليها تهنئتها بعيد ميلاده.. وما أن فتحتها حتى وقعت عيناها على عدد لا يعد ولا يحصى من المنشورات التي تهنئه بعيد الحب وعيد ميلاده.. والتي كانت في معظمها.. وإن لم تكن كلها.. من حسابات خاصة بفتيات وسيدات.. ابتسمت ابتسامة باهتة وانسحبت خارجة من الصفحة بذات الهدوء الذي تسللت إليها به.. تركت له ساحة الحب خاوية منها ورحلت عنها في صمت يرافقها كبرياء أبي أن يكون اسمها مجرد اسم من ضمن قائمة أسماء هؤلاء النساء.. وعوضا عن كتابة تهنئة لوليد بعيد ميلاده على صفحته.. كتبت منشورا على صفحتها..

"باقة ورد لروح ذلك الفارس النبيل الذي كانت دعوته في هذا اليوم هي الحب.. الصحفي مصطفى أمين"..

ثم أتبعته بمنشور آخر..
"أحبوا.. أحبوا كما لم تحبوا قط.. فقد يأتي زمن عليكم تتمنون لو تعودون للحياة فقط لكي تنعموا بلحظة حب واحدة"..

ذيلت المنشورين باسمها كما اعتادت.. ثم شرعت في تصفح الرسائل الواردة إليها.. أول رسالة كانت من الصديق "بحبك يا مصر"..

"رفيف ضروري نبدأ شغل من بكرة.. هنحتاج لينكات كل الصفحات والمجموعات

والحسابات الخاصة اللي بتدعو للثورة المسلحة يوم 28 نوفمبر.. ابعتيلي كل اللي تقدري تلاقيه منهم على "فيس بوك".. ومتنسيش تحذفي الرسايل زي ما اتفقنا"..

قالت مهمهمة بصوت خفيض.. وهي لا تزال منتشية بمشاعر الحب الفياضة التي كانت تغمر "فيس بوك"..

- تؤمري أمر يا بلدي..

تصفحت باقي الرسائل التي كانت تهنئها بعيد الحب من بعض الصديقات والأصدقاء.. حتى توقفت عند رسالة لخالد.. كانت الرسالة تحتوي على صورة لباقة ورد حمراء وملف وورد مرفق بها ورابط لأغنية "نفسي اعترفلك" لوائل جسار على موقع "يوتيوب".. وعبارات مرحة لا تخلو من رقة كتلك التي اعتادت أن يرسلها إليها من وقت لآخر..

- كان نفسي أقدملك الورد ده بنفسي يا أجمل وردة في الكون.. بس أنتي عارفة مافيش أجازات اليومين دول.. اقري الملف واسمعي الأغنية..

ضغطت رفيف على رابط الأغنية وانسابت الموسيقى تداعب أذنيها.. وفتحت الملف المرفق وهي تقرأ سطوره الأولى كان "وائل جسار" يعلن عن رغبته في الاعتراف لحبيبته بمكنون قلبه.. وكان "خالد" في سطوره يعلن لها عن ذلك الحب الذي لطالما كان رفيقا له في تلك الليالي المسهدة التي كان يقضيها ساهرا في وحدته على الحدود وهي تحتل تفكيره وترتسم في عينيه كنجمة في سماء الصحراء الصافية تضيء له عتمة وحشته وظلمة المجهول الذي كان يتربص بالجميع هناك..

خفق قلبها بشدة وهي تقرأ سطوره.. وسقطت في بحر لجي من الحيرة والفرحة الخفية.. فبالرغم من أن كلماته دوما كانت تشي عما يتعمد هو إخفاءه من مشاعر.. وبالرغم من أنها كانت طيلة الوقت تخشى اعترافا كهذا منه.. إلا أنها لم تكن أبدا تتوقع أنه سيبوح لها بحبه..

كانت مفاجأة لم تخطر ببالها.. ولم تكن أيضا تحسب لها حسابا في هذا التوقيت تحديدا.. وفي هذا اليوم بالذات..
لماذا لم تتلق هذه الرسالة من "وليد".. لماذا ألقى "خالد" بهذا الحجر في مياه أيامها الراكدة.. وما سر هذه الرجفة التي انتابت كيانها منذرة عن بداية صراع خفي بداخلها؟!

حاولت أن تستجمع مشاعرها التي تناثرت كأوراق ورد متناثرة في عيد حب لم يتم العاشقون احتفاءهم به.. وأخذت تفكر فيما عساها أن تجيب به "خالد"؟!

وهل كانت رسالته في ذاك التوقيت تحديدا بمثابة رسالة إليها من القدر ليحول دفة مشاعرها إلى مسار آخر أم أنه يمارس لعبته القديمة معها مرة أخرى ليزيدها من فوضى مشاعرها بيتا ومن عذاب الحب قصائد!

لماذا يضعها الحب دوما في ذلك الاختبار.. لماذا يبقيها معلقة على هاوية الاختيار بين قلب يسكنها وآخر تسكنه..

"الحسن لعنتك يا "رفيف" والحب قدرك.. وما بين لعنتك وقدرك ستبقين حلما يراود الحالمين ويؤرق الساهرين.. وستقفين وحدك على محطات الانتظار.. تودعين الراحلين وتستقبلين الوافدين.. ولكنك أبدا لن ترافقيهم في ذات القطار"

هكذا قال لها العجوز الذي التقته مصادفة ذات مرة منذ ما يقارب الأربع سنوات في إحدى الأمسيات التي كانت تجمعها ببعض أصدقائها الذين كانت تجمعهم في بعض الأوقات جلسات ثقافية أو سياسية.. والذي ما أن رآها حتى أطال النظر في عينيها.. وكأنه يقرأ طالعها بتلك النظرة التي بقدر ما أخافتها أثارت فضولها في الوقت ذاته!

لم تستطع أبدا نسيان كلماته تلك التي بدت لها كالألغاز المبهمة وكالطلاسم السحرية.. والتي أصبحت منذ ذلك الحين تلازمها كظل وفي.. أفزعها ذلك الهاجس الذي زارها فجأة كضيف ثقيل دون سابق موعد في توقيت لم تتوقعه أو ربما لا ترغبه لمجيئه في وقت ليست هي مستعدة لاستقباله.. ولكنها بالرغم من هواجسها أعادت قراءة رسالة "خالد" مرة أخرى.. ثم مرات ومرات.. وفي كل مرة كانت صورة "وليد" تتلاشى شيئا فشيئا من محيط تخيلها..

كان ذلك الوجه المبتسم الذي تستعين به في تلك الأوقات التي لا تدري بماذا تجيب عن محدثها هو ردها على رسالته.. والذي ما أن رآه "خالد" يطل كالقمر المضيء على شاشة هاتفه حتى أغمض عينيه وهو يتنهد تنهيدة عميقة كمن استراح من عناء سفر طويل ثم فتحها ثانية وكأنها منحته قبلة الحياة.

(18)

بعدما غادر "حازم صقر" مكتب ذلك الرجل الملقب بالثعلب الجسور ذهب لتناول غدائه في مطعم "الشوتنج لودج" في نادي الصيد بالدقي.. طلب طبقه المفضل فراخ مشوية وسلاطة خضراء.. وبعدما انتهى من غدائه وتوجه ناحية المبنى الاجتماعي القديم ليحتسي قهوته هناك كالمعتاد..

أجرى اتصالا هاتفيا مع أحد الأشخاص أبلغه فيه أن يبدأ رصد تحركات الهدف من

اليوم.. وأن تبدأ عناصر المراقبة في مرقبة بيته وكذلك مصنعه من الغد..

أعادته هذه المكالمة لتلك الأيام التي كان قضاها طيلة السنوات الماضية.. وهو يرصد خيانة من فرطوا في الوطن ويحاول جاهدا أن يكبح جماح غضبه حين يراهم يحرقون الوطن ويعبثون بمصيره حتى يؤدي مهمته بنجاح.. كانت مهمة شاقة وصعبة.. إلا أنه تحمل عناءها بصبر وجلد لكي يتمكن من جمع أدلة تآمرهم وخيانتهم ويسلمها للأجهزة الأمنية والسيادية في مصر والتي أوكلت هذه المهمة إليه هو وغيره من أفرادها.

أيام وشهور وسنوات.. تركت في نفسه أثرا بالغ المرارة.. لم يكن يتصور يوما أن يلتقي بكل هذه الخيانات الفاحشة وجها لوجه.. بل لم يكن يصدق أن تصل حجم المؤامرة إلى هذا الحد ممن أطعمهم الوطن وسقاهم من خيراته.. وممن تنفسوا هواءه ونشأوا وترعرعوا تحت سمائه. وإن كانت الخيانة في حد ذاتها أمرا حقيرا.. إلا أن خيانة الوطن لهي أحقر الخيانات على الإطلاق..

كان يعلم تماما وهو يخوض غمار تلك المعركة أن حياته قد تكون هي الثمن إذا تم اكتشاف أمره من قبل من يخالطهم في ميدان التحرير.. وفي الكثير من تلك الأحداث التي كان يرصدها وهو يحمل كفنه بين يديه ويقدم روحه عن طيب خاطر فداء للوطن!.. كثيرا ما أحبط مؤامرات وتواطؤات على مصر ومصيرها.. كاد أن يفقد الثقة في أنه لا يزال بهذا البلد من يحبونه من أبنائه ويهيمون عشقا به.. حتى التقى "رفيف" ذلك اليوم فعاوده إيمانه القديم أن حب الوطن هو الحب الحقيقي الذي يستحق التضحية بكل ما هو غالٍ ونفيس..

تذكر محاولات الاغتيال التي تعرض لها في ذلك الوقت وابتسم ابتسامة امتنان.. وشكر الله على أنه نجاه منها وأعانه على إتمام مهمته بنجاح تام.. فقد كان المتآمرون على الوطن في تلك الفترة لا يتورعون عن تعذيب كل من يشكون في أمره.. بل قد يصل بهم الحال إلى قتله إذا ثبت أنه يتبع أي جهاز أمني في الدولة..

كان "حازم" يصعد سلالم المبنى الاجتماعي بالنادي وهو لا يزال غارقا في دوامات أفكاره حين استوقفه فجأة أحدهم وهو يصيح فرحا..

- حازم باشا إيه النور ده كله.. أنا كنت بدور عليك في النادي من يومين.. كنت عايزك في موضوع مهم..

حاول "حازم" استيعاب الموقف وهو ينظر بارتياب إلى هذا الذي اقتحم عليه أفكاره بغتة.. ولكنه حاول أن يخفي نظرته بقدر الإمكان حتى لا يتسبب في إحراجه.. دوما ما كان يتعجب من هؤلاء الذين لا يراعون أبسط قواعد اللياقة في تعاملاتهم مع الآخرين.. ربما انغماسه في الحياة العسكرية كان أحد الأسباب

التي جعلته إلى حد ما منفصلا عن واقع المجتمع الذي كان يتغير تدريجيا للأسوأ على مدار سنوات وسنوات..
- خير يا فندم.. ممكن الأول قبل ما تقولي إيه الموضوع أعرف مين حضرتك؟

تنحنح الرجل وقد انتبه أنه بالفعل لم يقدم نفسه له قبل أن يبادره بالسلام والكلام..

- أنا يا فندم سمير شاكر مدير إنتاج برامج في قناة فضائية معروفة.. تابعت حضرتك في أكتر من برنامج وعرفت من بعض الأصدقاء في النادي إنك عضو معانا فحبيت أتعرف على حضرتك وأبلغك رغبة القناة في التعاون معاك من خلال برنامج أسبوعي خاص بيك مدته ساعتين.. تعرض فيه للناس كل الحقايق اللي معاك وتشرحها شرح وافي..

أخذ "حازم" نفسا عميقا وهو يفكر مليا في الأمر ثم ابتسم ابتسامة عريضة بدت مبهمة لسمير وصوت عزيمته يردد عليه أنه بالفعل آن الأوان لكي يصبح لمعركته ومعركة الوطن وجه آخر في الأيام المقبلة ولكنه لم يعلن موافقته لسمير شاكر في التو واللحظة فقد كان عليه أن يعرض الأمر أولا على الثعلب الجسور.. فأجاب بنبرة جادة توحي بأن صاحبها لم يتخذ قرارا بعد..

- هفكر وأرد عليك..

- أتمنى إن حضرتك توافق.. وأي شروط حضرتك هتطلبها في العقد اعتبر القناة موافقة عليها ومن قبل حتى ما نعرفها..

كان الرجل يقول كلماته بنبرة تكاد تكون أقرب للتوسل وهو يخرج من جيب قميصه بطاقة عمل عليها اسمه ووظيفته وأرقام هواتفه ليعطيه لحازم للاتصال به في حال موافقته..

مد "حازم" يده والتقط البطاقة وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة المبهمة وهو يشكر "سمير" على عرض القناة ويعده أن يبلغه برده في خلال يومين على الأكثر.. ثم استأذنه في الانصراف والأخير يبادره بنبرة صادقة وتلقائية وهو يصافحه..

- حضرتك حقيقي مكسب لأي قناة فضائية يا حازم بك هستنى رد حضرتك زي ما وعدتني..

جلس "حازم" على طاولته المعتادة في المبنى الاجتماعي ونادى على النادل ليطلب منه فنجان قهوته السادة.. ثم أشعل سيجارته وأخذ يدخنها في تلذذ..

كانت الساعة تقترب من الرابعة حين اتصل "وليد" بأحمد هاتفيا ليطلب منه ملاقاته في مقهى كوستا كوفي في شارع مصدق بالدقي ليذهبا سويا إلى بيت والدة وليد كما اتفقا من قبل.. بعدما أنهى المكالمة طلب كابتشينو كراميل.. كانت المرة الأولى التي يشرب فيها الكابتشينو بنكهة الكراميل.. ولكنه أحس أن نكهة الكراميل قد تعوضه عن "رفيف" التي رافقته إلى هذا المكان بعض المرات القليلة.. كان هذا هو مشروبها المفضل.. كما كانت هي امرأته المفضلة.. نكهة عشقه وشوقه.. النور الذي أضاء جنبات حياته والنار التي يحترق بها ومن أجلها..
فكر في الاتصال بها ولكنه خشي صدها وعنادها بعد تلك المحاولة الفاشلة منه في استمالاتها مرة أخرى..

لم يكن ينكر عليها بينه وبين نفسه أنها كانت محقة في كل كلمة قالتها له آخر مرة تحدث إليها عبر "فيس بوك".. فهو يعترف أنه هو دائما من يفسد الأمر بينه وبينها.. ولكنه أيضا يعرف أنه ليس بإمكانه أن يمنحها المزيد منه ليس لأنها لا تستحق، فهي المرأة الوحيدة التي خفق لها قلبه بصدق والتي شعر بأنها تستحق أن تتوج ملكة على عرش أيامه.. ولكن لأنه لم يعد يملك المزيد..
هل سيمنحها حطام إنسان أم بقايا أيام.. كيف له أن يكملها قبل أن يكتمل هو أولا.. وكيف له أن يكتمل قبل أن يستعيد مكانته التي سلبتها منه قسرا تلك المؤامرة.. وتردد داخله ذات السؤال المرير هل كانت المؤامرة على الوطن بأكمله أم كان هو المعني منها والمستهدف؟!

أخذ يرتشف الكابتشينو كراميل وهو ساهم.. يخال نفسه يرتشف شفتيها مستشعرا دفء القبلات مع كل رشفة من القدح.. حتى رن هاتفه فأفاق من شروده..

- أنا تقريبا قربت من كوستا كوفي.. بس شكلي كده مش هلاقي مكان أركن.. هسبقك على بيت مامتك.. وأنت خد عربيتك وحصلني..

- أنا هطلع استناك قدام باب كوستا iروح معاك بعربيتك.. ماليش مزاج أسوق..

- طيب بس أنجز عشان الدنيا زحمة ولو وقفت استناك هضطر أقف في نص الشارع..

- هتلاقيني مستنيك قدام باب كوستا..

قرر أن يرافق "أحمد" في سيارته حتى يضمن ألا يغادر مبكرا بدونه ولكي يجعله يقضي معه السهرة في بيت "مروة" بحجة أن يعيده إلى مكان سيارته التي تركها بالقرب من كوستا كوفي!

وجده "أحمد" بالفعل يقف أمام باب المقهى ينتظره.. فاستقل "وليد" معه السيارة وقبل أن يتجها إلى وجهتهما طلب الأخير الاتجاه أولا ناحية سيارته لكي

يحضر منها الحقيبة الصغيرة التي كان يحمل فيها ملابسه التي تحتاج للغسيل والكي.. وما أن وصلا إلى بيت العائلة حتى انهالت على "وليد" قبلات أمه وأخته من كل حدب وصوب وكأنه عائد من رحلة سفر طويلة..

- كل دي غيبة يا وليد.. أنا خايفة أموت وأنت بعيد عني..

- بعيد الشر عنك يا ست الكل.. ربنا يديلك العمر والصحة..

- مش ناوي بقى ترجع تعيش معانا أنا وأختك وتجيب ابنك شادي يزورنا.. وحشني أوي.. ولا هيفضل مكتوب عليا كل واحد منكم عايش بعيد عن التاني وإنتو الاتنين بعيد عن حضني..

- هانت إن شاء الله يا حبيبتي..

ابتسمت له ابتسامتها الحانية التي عودته أن تستقبله بها منذ أن كان صغيرا.. كلما أحست أنه يحمل بداخل نفسه ما لا يقوى على البوح به.. كانت قد أعدت له كل أصناف الطعام التي يحبها.. فالتفوا جميعا حول المائدة يتناولون الطعام بشهية.. ويتجاذبون أطراف حديث عائلي حلو وحميمي ويضحكون ضحكات صافية ملء قلوبهم التي كانت تتوق لفرحة مؤجلة منذ أن خيم عليها القلق والتوجس من مصير مجهول يتربص بالوطن.

بعد الانتهاء من تناول الغداء مكث "وليد" و"أحمد" ما يقارب من الساعة ونصف الساعة مع العائلة ثم اعتذر "وليد" عن البقاء مدة أطول متعللا بأن "أحمد" لديه موعد مهم وسيضطر للانصراف معه لكي يقله إلى سيارته التي تركها عند المقهى..

ابتسم "أحمد" ابتسامة بلهاء وهو يهز رأسه بالموافقة على كل ما تفوه به "وليد" من أكاذيب ساذجة لا تنطلي على أطفال صغار،..

صافح "وليد" أمه وأخته في عجالة ثم جذب "أحمد" من ذراعه ليغادرا قبل أن تبدأ الأم في طرح أي أسئلة ليست في حسبانه..

انفجرا في ضحك متواصل في اللحظة التي أوصدت فيه الأم باب الشقة مودعة إياهما..

طلب "وليد" من "أحمد" أن ينقل سيارته من مكانها إلى مكان آخر في الشارع الخلفي من البيت على أن يعودا للعمارة التي تسكن بها "مروة" سيرا على الأقدام وفي الطريق لبيتها طافت ذكرى تلك الليلة بمخيلة "وليد" وكأنها حدثت بالأمس القريب.. كانت المرة الأولى التي يراها فيها.. كانت الساعة قد تخطت الواحدة بعد منتصف الليل ببضع دقائق في ليلة من ليالي ديسمبر عام 1995 وهو عائدا لتوه من عمله.. كان يعيش في بيت عائلته بالدقي قبل زواجه بعدة

سنوات.. وما أن صف سيارته وترجل منها حتى لمحها تندفع خارجة من مدخل عمارتها حافية ترتدي قميص نوم ممزق وآثار كدمات واضحة على وجهها وشعرها متطاير في فوضى عارمة.. وتصرخ من شدة الألم.. وتركض مسرعة من شدة خوفها أن يلحق بها من يطاردها!

كان "وليد" في تلك اللحظة قد أغلق باب سيارته وأسرع نحوها لينقذها.. حتى لمحه يركض وراءها وفي يده حزام جلدي يبدو وكأنه كان يضربها به.. وما أن رأت "وليد" حتى ركضت نحوه تحتمي به و"كريم" يصرخ فيها بصوت عالٍ وينعتها بأقذع الألفاظ.

انتابت "وليد" حالة من الذهول لثوانٍ معدودة أفاق منها في اللحظة التي حاول فيها "كريم" أن يجذبها من شعرها.. قبض الأول على ذراعه بعنف والغضب يتطاير من عينيه.. وقبل أن يوجه "كريم" سبابه لوليد كان الأخير قد بادره بلكمة في وجهه أسقطته أرضا..

- بتتشطر على واحدة ست يا حيوان.. وفاكر نفسك راجل.. طيب وريني كده هتعرف تعمل راجل عليا أنا كمان ولا هتعمل فيها عيل؟!

نهض "كريم" مترنحا وحاول أن ليصفع "وليد" ويفوت الفرصة عليه أن يهزمه أمام "مروة".. إلا أن "وليد" تفادى الصفعة ولوى ذراع "كريم" خلف ظهره وأخرج مسدسه وأطلق طلقتين في الهواء الأمر الذي أفزع سكان الشارع فبدأت نوافذ الشرفات تنفتح واحدة تلو الأخرى ووليد يكيل السباب لكريم وكأنه لص ضبطه وهو يحاول الفرار بعدما أتم سرقته.

كانت "مروة" لا تزال واقفة خلف "وليد" تحتمي به وهي ترتعد من البرد ومن الخوف ودموعها تغرق وجهها على ما آل إليه حالها مع من كان يوما حبيبها!

فر "كريم" هاربا من الشارع كله في تلك الليلة.. أما وليد فقد خلع سترته ووضعها بحنو وإشفاق على كتفي "مروة" ليجنبها البرد ويحميها من العيون المتلصصة عليها من الشرفات والنوافذ..

- مين الحيوان ده؟

بصوت متقطع أجهده الصراخ والبكاء وأنفاس متهدجة قالت وهي لا تزال تنتحب:

- ده كريم الصفتي جوزي..

- جوزك!! وجوزك إيه اللي يخليه يعمل فيكي كده!!

- أرجوك ساعدني أتطلق منه أنا ماليش حد وخايفة لو فضلت عايشة معاه أكتر من كده يقتلني.. من يوم ما انضم للجماعة اللي هو انضم لها وهو بقى حد

تاني..

قالتها ثم زاد نحيبها وارتفع صوت بكائها..

أشار "وليد" نحو أخته التي كانت تقف هي الأخرى في شرفة منزلهم تراقب وليد بلهف وقلق وهو يقول لمروة:

- دي نهلة أختي.. هطلعك ترتاحي عندها شوية وأنا رايح مشوار وراجع علشان مش هينفع أسيبك تقعدي في بيتك لوحدك لأنه ممكن يرجع تاني ويتهجم عليكي.. آه نسيت أعرفك بنفسي أنا وليد سامي ظابط شرطة..

(20)

ولم الانتظار إلى الغد.. هكذا قالت "رفيف" لنفسها وهي تعيد قراءة رسالة "طارق منير" مرة أخرى لتحدد بدقة ما يجب عليها عمله وأي الكلمات ستستخدمها كمفاتيح للبحث عن تلك الصفحات والمجموعات التي طلب منها أن توافيه بإرسالها له أولا بأول.. ولكنها قررت قبل أن تبدأ العمل أن تكتب منشورا على صفحتها.

"اليوم كل عاشق يهدي معشوقته هدية.. أما أنا فمعشوقتي هي التي منحتني هوية.. إلى معشوقتي مصر.. اليوم يحتفل كل حبيب مع محبوبه.. أما أنا فسأحتفل بهذا الوطن.. عشقي الأول والأخير والأبدي.. سأهديه روحي ووقتي وحبي وإخلاصي"..

ثم بدأت في العمل والبحث عن الصفحات التي تدعو للحشد يوم 28 نوفمبر تحت ما يسمى الثورة الإسلامية المسلحة، وتنظيم "داعش" في مصر.. وجدت عددا من الصفحات والمجموعات ليس بالقليل تصفحت بعضها قبل أن ترسل روابطها إلى "طارق منير" برسالة.. انقبض قلبها وهي تقرأ منشورات هذه الصفحات وتعليقات المشاركين بها.. أي جنون هذا.. هل مصر دولة كافرة كي يظن هؤلاء أنهم من سينشرون الإسلام بها أو يعيدونه إليها، وهل ما يؤمنون به هو الإسلام

من الأساس؟!

زادها ما قرأت تصميما وإصرارا على أن تستمر في البحث وجمع أكبر عدد ممكن من هذه الصفحات وفي أقصر وقت كذلك.. قضت ما يقارب من الساعتين وهي تجمع روابط الصفحات وتكتب ملاحظاتها في تقرير موجز عن كل صفحة أو مجموعة وترسله أولا بأول لطارق.. وكلما انتهت من رسالة حذفتها على الفور من صندوق الرسائل على حسابها هي.. بعدما انتهت من مهمتها لهذا اليوم.. أرسلت رسالة موبايل له أن يتفقد صندوق رسائله على "فيس بوك" للضرورة القصوى..

أثار ما قرأته من منشورات وتعليقات كتبها هؤلاء المتطرفون شجونها وأعاد إليها ذكريات مريرة عن تلك الأيام التي عايشتها أثناء اندلاع أحداث يناير 2011 وما شهدته البلاد من انفلات أمني آنذاك.. وشعور الخوف المرير والجارف الذي لازمها في ذلك الوقت من أن تفقد هذا الوطن.. فماذا يبقى بعد الوطن.. لا أمان.. لا حياة.. لا وجود.. لا كيان.. لا حب.. لا حلم.. لا شيء على الإطلاق!

عادت مرة أخرى إلى تلك الصفحات التي تحرض على الجيش المصري وتدعي زورا وبهتانا أنها تنطق باسم الله.. انتابها إحساس مبهم بالقلق هل يمكن أن تتحول مصر إلى عراق آخر أو سوريا أخرى.. لقد ضاعت العراق منذ أمد بعيد ولم تعد وها هي سوريا تسير على ذات درب الضياع بخطى سريعة.. هل هذه هي الديمقراطية المزعومة التي حشدت أمريكا حشودها المالية والمخابراتية والعسكرية والإعلامية لكي تطبقها في المنطقة العربية بأكملها.. ديمقراطية زائفة وحلم كاذب بالحرية!

قفزت ذات الصورة الباهتة إلى مخيلتها مجددا والتي كانت تحاول أن تواريها خلف ستار الذاكرة دائما لشدة ما تؤلمها.. صديقتها العراقية التي ضاعت يوم ضاع العراق، كانت رفيف قد التقطتها لأول مرة وللمرة الوحيدة حين جاءت تلك الفتاة من العراق مع وفد من مكتب منظمة اليونسكو والتي كانت تعمل به في بلدها وذلك لتلقي تدريبا مهنيا في مكتب ذات المنظمة في القاهرة.. والذي كانت تعمل به رفيف عام 2000 أي قبل الاحتلال الأمريكي للعراق بثلاثة أعوام.

تذكرت رفيف مأساة تلك الصديقة التي احتلت أمريكا وطنها ودمرته ولم ترحمها بريطانيا حين فرت إليها هاربة من ذل الاحتلال وجحيمه.. فأذاقتها لندن نوعا آخر من الذل والضياع.. خيمت لحظات من الأسى على وجه رفيف وهي تتذكر قسمات وجه صديقتها تلك التي كانت تتمتع بذلك الجمال العراقي الشهير.. وتذكرت تلك الرسالة الأخيرة التي تلقتها منها على بريدها الإلكتروني عام 2003 بعدما ضاع العراق ومات أبوها كمدا وحسرة على وطن بيع في مزاد علني للخيانة والمؤامرة.

قررت أن تكتب عن تلك الصديقة للعالم أجمع.. أن تبعث حكايتها رسالة لأصدقائها علهم يفقهون معنى الوطن.. علهم يدركون أن حين يضيع الوطن فلا حياة بعده..

انتهت من كتابة المنشور عن قصة تلك الفتاة التي بعد أن كانت تعمل في وظيفة مرموقة وتعيش معززة مكرمة في بيت دافئ ووطن حر.. أصبحت ذليلة كسيرة ضائعة في شوارع لندن الباردة.. ينتهكها الإنجليز هناك كما انتهك الأمريكان من قبلهم وطنها.. بعد أن طردتها زوجة أخيها من منزلها وطردها ومن قبلها طردها المحتلون الأمريكان من بلدها..

(21)

كان "خالد" يستمع إلى مقطع من أغنية لعبد الحليم وهو ينهي بعض الأعمال الورقية في وحدته العسكرية بشمال سيناء.. "حبيتها أيوه أنا حبيتها، مش قادر أنسى ضحكتها".. كان سعيدا بعدما اعترف لها بحبه.. وبعدما تلقى ردها على هذا الاعتراف.. تلك الابتسامة التي وإن كانت صامتة إلا تعني تقبلها لاعترافه!

نعم يحبها ذلك الحب الذي لم يحبه قط لسواها.. إنها ليست امرأة وحسب إنها الوطن الذي يعشقه ذلك العشق الذي تسلل إلى روحه دون أن يدري متى ولماذا وكيف؟.. وهل يستطيع المتيم بعشق الوطن أن يتساءل متى تفتحت أزهار العشق في قلبه.. ولما يحب وكيف.. إن الحب لا تجدي معه الأسئلة.. وإن العاشق يكفيه أنه يحب..

مقدم أركان حرب "خالد يحيى".. يبلغ من العمر أربعين عاما.. طويل القامة.. مفتول العضلات.. عيناه بلون السماء الصافية.. بشرته خمرية بلون الشمس التي تلفح وجهه كل صباح في صحراء سيناء.. شخصيته مرحة ورومانسية بغير ضعف أو خنوع.. عطوف على كل من حوله.. حاسم في قراراته.. يمتلك من الصبر والجلد وقوة التحمل ما لا يتوافر في كثير ممن هم في نفس سنه من الرجال في هذا الزمن..

تفتحت عيناه على البدلة العسكرية.. فوالده أيضا ضابط من ضباط القوات المسلحة.. شارك في حرب أكتوبر المجيدة.. رباه على معاني التضحية والفداء من أجل الوطن.. غرس فيه قيمة الانتماء لتراب مصر الذي ارتوى بدماء شهداء حرب 73 لكي يبقى حرا أبيا عزيزا سالما لعمر ولأبنائه من بعده..

أحب "خالد" جيش مصر بقدر حبه لمصر.. فظل التحاقه بالكلية الحربية هو الحلم الذي يسكن جفونه منذ صغره حين كان يقلد أباه في حديثه وفي مشيته وفي إحساسه بالفخر كونه ضابطا بالقوات المسلحة المصرية التي كان دوما ما يردد على أسماع خالد منذ طفولته أنها خير أجناد الأرض حامية العرض.

حقق أول وأهم أحلامه حين التحق بالكلية الحربية التي أظهر تفوقا ملحوظا في سنوات الدراسة بها.. ثم حصل على أركان حرب التي تعادل درجة الماجستير

في الكليات الأخرى.. انهمك في العمل العسكري الذي أحبه بصدق وتفانٍ وإخلاص حتى إنه انشغل بعمله عن الزواج وعن الحب أيضا.. خطبت له والدته أكثر من فتاة منذ سنوات عديدة.. إلا أنه كان يعتذر عن إتمام إجراءات الخطبة في كل مرة.. متعللا بظروف عمله التي تحتم عليه البقاء لفترات طويلة بعيدا عن القاهرة متنقلا من مكان إلى آخر حسب متطلبات العمل.

ومنذ ذلك الحين لم تعاود أمه المحاولة.. وتركته لشأنه.. كانت تعلم أنه عنيد وأن تلك المحاولات لإقناعه بوجود الزواج وإنجاب الأطفال لن تفلح معه إن لم يكن هو يرغب في هذا الأمر وعلى قناعة تامة بالفتاة التي سترافقه في رحلة الحياة..

ابتسم "خالد" ابتسامة صافية وهو يفكر في "رفيف" التي ما أن تعرف بها حتى أحس بأن الأحلام يمكن أن تتجسد في امرأة.. وأن بإمكان امرأة واحدة في الكون أن تختصر كل نساء الأرض.. إنه يحبها بكل ما ادخر من حب طيلة سنوات عمره،.. وبكل ما يحمله من حب في قلبه.. وبكل عنفوان الأربعين.

استنشق هواء الصحراء النقي وكأن يستنشق عطرها في الوجود.. أهداها بضع كلمات انتقاها بعناية من إحدى قصائد نزار قباني ليرسم بها على صفحته خفقات قلبه الأربعيني، "رجلٌ يحب بكل عنف الأربعين.. لو كنتِ يوماً تفهمين ما الأربعون، وما الذي يعنيه حب الأربعين".. وما أن أتم كلماته حتى انهالت عليه تعليقات الفتيات والنساء.. جميعهن يحاولن استدراجه بتعليقاتهن لمعرفة لمن يوجه هذه الرسالة.. وهل هو بالفعل يمر بحالة حب أم أنها حالة شعر عابرة.. وكل منهن تتمنى لو أنها هي المعنية بعبارة "لو كنتِ تفهمين "..

أما هو فكان يبتسم بتعجب وهو يقرأ تعليقاتهن وأسئلتهن التي قرر أن يجيب عنها بأبيات شعر من قصيدة للشاعر عبدالله الفيصل.. والتي كان يغرد بها مطربه المفضل حليم الذي يؤنس دوما وحشته بصوته في تلك الصحراء القاصية عن محبوبته والقاسية على أعدائه:

"الرفاق حائرون.. يفكرون.. يتساءلون في جنون.. حبيبتي أنا من تكون.."

ثم تركهن في حيرتهن يفكرن ويتساءلن ويتأوهن ويتمنين.. وهو يردد بهمس مع الأغنية.. "فحرصي عليكِ كحرص نفسي على الحياة لكي تطول"..

(22)

ظلت "مروة" تقف واجمة خلف باب شقتها بعد أن أغلقته بعد انصراف "وليد" و"أحمد" بسبب ما همس لها به "وليد" وهو يقترب من أذنها بأمر ما قبل انصرافه من عندها.. ولكنها تنهدت تنهيدة ارتياح لخلاصها من كابوس كان يخيم على حياتها يوما ما..

استدارت واستندت على باب الشقة بظهرها وهي تغطي وجهها بكفيها كأنها تخشى أن تعاود الذكريات مهاجمتها في عتمة الليل.. ظل سنتان وهو يتهمها بالفسق والفجور لأنها لا تستجيب لشخصيته التي لم تعرفها قط.. ولم تكن لتتقبل تلك الحياة معه إن هي عرفتها من قبل.. عامان وخذلانه المستمر لها يشوه داخلها كل ما تبقى من لحظات حب عاشتها معه... وصل به الأمر إلى حد محاولة حبسها في البيت وضربها وسبابها إن لم تقدم استقالتها من العمل في الإعلام الذي أصبح يرى العمل به انحرافا بل وكفرا أيضا..

أراد أن يمحو ملامحها وكيانها بممحاة ذلك الكفن الذي أسماه زيا شرعيا للمرأة المسلمة.. ليخفيها تحت ستار أسود كئيب من شعر رأسها لأخمص قدميها وكأنها عار يستوجب الخلاص منه وتكفينه وهو لا يزال نابضا بالحياة!

الموت لا الحياة هي ما أراده لها.. والتعاسة لا السعادة هي ما قدمه.. ذلك المتطرف دينيا وفكريا وجسديا.. فكيف كان يوما حبيبها.. طالبته بالطلاق كثيرا ولكنه رفض وتعنت وأبى إلا أن يبقيها قيد الأسر في معتقل مزاجه المختل ورجولته المعتلة.. ليسقيها كؤوس العذاب بحجة تقويمها وإصلاحها.. أليس هو الرجل وهو صاحب القوامة وهو السيد وهو الحاكم المطاع.. وهو الذي ميزه الله عليها حين خلقه ذكرا وحين خلقها أنثى؟!

حتى تلك الليلة التي أرسلت لها السماء طوق النجاة.. متمثلا في "وليد" الذي ساعدها في الحصول على طلاقها منه.. فبعدما أسلمها إلى أخته واطمأن أنها في رعاية أسرته وطمأنها أنه لن يتخلى عنها.. توجه إلى قسم شرطة الدقي وطلب من معاون القسم هناك.. والذي كان على علاقة وثيقة به أن يحرر له محضرا ضد "كريم الصفتي" بتعديه عليه أثناء تأدية عمله الرسمي..

أملى المحضر على معاون مباحث القسم بالصيغة التي يضمن بها إدانة "كريم" بعد إلقاء القبض عليه.. ثم طلب منه أيضا بصفة ودية عمل التحريات اللازمة عنه وإبلاغه بها.. بعد ذلك توجه إلي بيت "أحمد حسن" ليبيت عنده فلم يكن من اللائق أن يبيت في بيت أسرته تلك الليلة و"مروة" تقضي ليلتها هناك..

وفي خلال يومين كان قد ألقي القبض على "كريم" من مكان عمله الذي دلتهم عليه "مروة".. وبعد أن أكدت التحريات انضمامه لجماعة دينية متطرفة..

اضطر بعدها "كريم" إلى تطليق "مروة" في قسم شرطة الدقي بعد الضغوط التي مارسها عليه معاون المباحث بالقسم من ناحية.. والتي تعرض لها من قيادات جماعته من ناحية أخرى خشية أن يدخلوا في مواجهات مع الداخلية لم يكن حان موعدها بعد بالنسبة لهم في ذلك الوقت..

حصلت "مروة" على حريتها أخيرا.. وبدأت في استعادة شخصيتها القوية المرحة شيئا فشيئا.. وفي إعادة بناء حياتها التي كادت أن تصبح ركاما بسبب تلك

الزيجة التي أثمرت في أيامها حنظلا مريرا..

ظل طيف "وليد" يراودها ليالي طوال وهي تحتمي به من ذلك الوحش الآدمي الذي كان يوما يتخفى تحت قناع كاذب لرجل زائف.. وكلما استعادت عافية نفسها الكسيرة وروحها الجريح كلما استبانت ملامحه أوضح في مخيلتها.. وكلما استفاقت من شبح خوف ظل يجثم على مخيلتها أيام طوال كلما استرجعت نبرة صوته في لياليها..

واستبد بها إحساس احتياجها إليه ليس فقط كجار يمكنها اللجوء إليه في أوقات شدتها وإنما كرجل يتقاسم معها أوقاتها وأيامها ومساءاتها المؤرقة.. لم لا يكون هو زوجها ورجلها وحبيبها؟!

كانت قد تقصت بعض المعلومات عنه من أخته أثناء عدد من الزيارات التي تلت تلك الليلة المشهودة.. بعد أن تقربت منها بالقدر الذي يسمح لها أن تدعي صداقتها أمامه وأمام جيرانها جعلت أحلامها تراودها عنه..

(23)

انقضى يوم الحب.. عاد كل شيء كما كان في حياة الناس.. وعلى صفحات التواصل الاجتماعي.. وعاد اللون الأحمر كما كان لون الدم لا لون الحب..

كانت الدعوات للثورة المسلحة قد بدأت في الانتشار عبر الإنترنت و"فيس بوك" لنشر الذعر في نفوس المصريين.. في الوقت الذي كانت قوات الجيش المصري أيضا بدأت في الانتشار على الشريط الحدودي في شمال سيناء لدحر الإرهابيين.. وتسارعت وتيرة الأحداث في تلك الأيام فما بين عمليات إرهابية تستهدف مدنيين وأخرى تستهدف عسكريين.. كان الشعب المصري يلفظ آخر ما تبقى في جوفه من عطن السنوات الطويلة التي كان يردد فيها شعارات واهية عن ثورة وهمية لم تخلف وراءها سوى أنقاض أحلام بالية وبعضا من حنين لوطن يسوده الأمن.. وبالرغم من تلك الأحداث العاتية التي هبت رياحها على الوطن..

أن تبقى محتفظا ببيتك وحياتك وسط آتون ملتهب من حولك فهذه معجزة كبرى.. أما أن تبقى محتفظا بوطنك حينما باتت شعوب المنطقة بأكملها بلا أوطان فهذه معجزة المعجزات.. وفي زمن الحرب لا يكفي أن تترنم بمعجزتك دون أن تبرهن

عليها أمام العالم أجمع كي يبقى على قيد الإيمان بها.. فبقدر ما كان البعض يبرهنون على عشقهم للوطن كان البعض الآخر لا يزالون يبرهنون على خياناتهم له.. فكانت الخيانة لا تزال تطعن قلب الوطن كما كانت المؤامرة أيضا لا تزال تدق على أبوابه سرا وعلانية..

ففي الخفاء كان جزء من المؤامرة يحاك في تلك الفيللا التي تقع في أحد الأحياء النائية والهادئة جدا في القاهرة الجديدة.. حيث كان لقاء "سعد التهامي" بكريم الصفتي وآخرين لإنهاء الصفقة التي أبرمها الفساد مع الخيانة للإجهاز على البقية الباقية من وطن ما زال يئن من وطأة المؤامرة..

- ده إيصال إيداع المبلغ بالكامل في حسابك يا سعد بيه.. وده كشف بأنواع الأسلحة اللي ممكن نحتاج لها اليومين الجايين.. هنحتاج علاقاتك مع أصحابك برة علشان فيه أسلحة عايزينها تتسلم مباشرة لعناصر التنظيم في سينا..

- بس الاتصال بالناس برة هياخد شوية وقت والعملية دي هتتكلف تلات أضعاف المبلغ اللي تم تحويله النهارده.. أبو سفيان أكيد عارف وفاهم إن المخاطرة كبيرة جدا.. وعلى ما تجهزوا الفلوس هكون أنا عملت اتصالاتي مع الراجل بتاعنا هو الأيام دي في النمسا.. هخليه يرتب لنا كل حاجة مع بنيامين شاؤول.. بس لازم نغير مكان مقابلاتنا بعد كده هنخليه في فيللا المقطم المرة الجاية..

- اللي تشوفه يا سعد بيه المهم تبدأ تعمل اتصالاتك في أسرع وقت لإننا بنجهز لعملية كبيرة قريب..

ابتسم "سعد التهامي" ابتسامة عريضة وسيجار الهافانا يتدلى من أحد طرفي فمه وهو منهمك في إشعاله.. ثم التفت إلى "كريم الصفتي" وهو يلقي بعود الثقاب في المنفضة الموضوعة على الطاولة أمامه موجها حديثه إليه بلهجة جادة وحادة وهو يطيل النظر في عينيه محاولا سبر أغوار هذه العملية التي لم يفصح له الأخير عن تفاصيلها..

- المهم إنتو تجهزوا بالفلوس كاملة وقبل معاد التسليم أنا عارف إن المبلغ كبير عليكوا المرة دي بس إنتو كمان طالبين أسلحة تسلح جيش بحاله!!

بعدما غادر الجميع المكان.. عادت الظلمة تخيم على الفيللا من جديد.. وفي العتمة كان هناك من يتسلل بحذر على ضوء كشاف يحمله بيده ليلتقط كاميرا صغيرة عالية الحساسية في التقاط الصوت والصورة كانت مثبتة في إحدى زوايا حجرة المعيشة.. والتي لم يكن يعرف بوجودها سوى أحد الأشخاص الذين كانوا برفقة "سعد التهامي".. والذي كان حريصا على ألا يلحظها أي شخص آخر من المجتمعين..

في الماضي امرأة واحدة لم تكن أبدا تكفي.. أما الآن فامرأة واحدة باتت تكفي وتغني عن كل نساء العالمين.. لم يكن في حسبانه أنه سيصادف تلك المرأة ذات يوم.. لم يكن يخطر بباله أن لعبة الحب التي كان يتقنها يمكن أن يصبح فيها مقامرا خاسرا.. راهن نفسه على أن يوقعها في شباكه فراهنه كبرياؤها على قلبه.. والحب وحده هو من كسب الرهان.. إنها المرة الأولى التي ينهزم فيها أمام نفسه.. منذ أن حادثها آخر مرة وهو لم يعد قادرا على إنكار حبه لها.. ربما لو لم تكن تحتل حياته.. ربما لو لم تكن تستوطن قلبه وتحتل فكره احتلالا أبديا لكان الآن يرتوي من رحيق "مروة".. ولكنه لم يعد بالضعف الذي كانه من قبل..الحب منحه قوة المقاومة.. كما سلبه قوة المكابرة..

كان يدرك أن "مروة" قادرة على استدراجه إلى أنوثتها في تلك الأمسية تماما كما استدرجته إليها من قبل عقب طلاقها من "كريم الصفتي".. وها هي الآن تعود مرة أخرى بعد رحيل "عدنان" لتضرم النار في هشيم رجولته.. أما هو فقد أخمد بركان أنوثتها في ذاكرته منذ أن باغته الحب.. فكان عليه أن يقتل أيضا أي أمل لها في إعادة عقارب الساعة إلى تلك الليلة التي تركته يذوقها فيها لأول مرة..

كان اصطحابه لأحمد في زيارتها هو بمثابة المخدر الذي حقنها به قبل أن يجتث جذور الحنين من أعماقها.. عاود تقديم تعازيه في المرحوم "عدنان" مرة أخرى ليذكرها به.. ثم أسر لها وهو يغادرها أن "كريم الصفتي" انضم لجماعة الأنصاري الإرهابية والتي تتبنى دعوات الثورة المسلحة في مصر.. كان يعلم علم اليقين أنها ستقرأ جيدا ما بين سطور الرسالة.. بأنه لن يرتضي الآن أن يحل في فراشها محل "عدنان" كما حل في يوم من الأيام مكان "الصفتي" وأنه موجود فقط لحمايتها من هذا الإرهابي إن احتاجت يوما للحماية..

كانت قسوته متعمدة كما كان استدراجها له متعمدا.. إلا أنه لم يعرف قط أنها أحبته وأن موافقتها على ذلك الاتفاق الذي فرضه عليها حين جعلته يتذوقها لأول مرة بعد طلاقها لم يكن سوى للاحتفاظ به في حياتها..

تمنته زوجا ولكنه لم يرغبها سوى خليلة.. أحبته سرا وذبحها علانية عندما أشعرها أنه لا يكترث بمفارقتها إياه ولا بزواجها من "عدنان".. ومنذ ذلك الحين لم تغفر له ولم ينس لها!!
وبالرغم من ذلك ظلت صداقة باهتة تجمع بينهما.. تلك الكذبة الجميلة التي تغلف كل العلاقات التي انتهى تاريخ صلاحيتها.. كانت تتواصل معه من آن لآخر بعد سفرها عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني.. ثم وبمرور الوقت تباعدت فترات التواصل بينهما حتى كادت أن تنقطع إلى أن التقى بها مصادفة ذات يوم وهو يزور بيت أسرته.. كان خارجا من باب العمارة التي تقطن بها أسرته وهي تتوجه إلى

مدخل عمارتها حاملة بعض حقائب تسوق لأشهر الماركات العالمية بعد أن نزلت من سيارتها الفارهة.. وكان ذلك بعد مرور عام واحد على زواجه من "سحر التهامي".. حيث كانت الخلافات قد بلغت ذروتها بينه وبين زوجته وأصبحت الحياة بينهما جحيما لا يطاق.. تجاذبا أطراف الحديث وحكت له عن رحلاتها للعديد من الدول الأوروبية مع "عدنان".. وعن إقامتها في لندن معظم شهور السنة.. وعن بعض شركاته التي نقل ملكيتهم إليها..

حكى لها عن بعض خلافاته مع "سحر" وعما أورطه فيه أبوها من أمور تهدد مستقبله الوظيفي.. ثم طلب منها هاتفها وكتب بنفسه تلك الرسالة التي يريد أن تصله على هاتفه عن علاقتها المزعومة بسعد التهامي على أن تحتفظ بها كمسودة وتقوم بإرسالها له في الغد في الساعة التي حددها لها..

لم تكن لتمانع في أن تفعل أي شيء من أجله.. فهي بالرغم من كل شيء كانت لا تزال تحبه خفية دون أن يعلم هو عن ذلك الحب شيئا..

(25)

ابتسم "طارق منير" ابتسامة رضا واثقة وهو يقرأ رسالة "رفيف" ويطالع الصفحات التي أرسلت إليه روابطها والتي تحرض على العنف يوم 28 نوفمبر.. بدأ يكتب تقريره عن تلك الصفحات وعن أعضائها.. ثم أرسل التقرير وروابط الصفحات لرؤسائه ولمن حددوهم له من المتخصصين في جرائم النت وجرائم الإرهاب لاتخاذ كل الإجراءات اللازمة ضد تلك الصفحات ومن يقومون بإدارتها من عناصر إرهابية متطرفة.. كان العمل يجري على قدم وساق في جميع الأجهزة الأمنية التي تمكنت بالفعل من إلقاء القبض على عدد كبير من المحرضين والإرهابيين كما قامت بإغلاق عدد كبير أيضا من تلك الصفحات التي تدعو للثورة المسلحة في مصر.. وبدأت وزارة الداخلية في إصدار بيانات في الصحف والقنوات التليفزيونية بالأمر لطمأنة المواطنين.. وانتشرت أخبار القبض على بعض العناصر المحرضة على مواقع التواصل الاجتماعي و"فيس بوك"..

وبالرغم من أن الخيانة كانت لا تزال تنشب مخالبها في جسد الوطن.. وبالرغم

من أن التطرف كان لا يزال يزرع إرهابه في كل أرجائه إلا أن الشعب كان يواجه كل ذلك بثبات وصمود وثقة في النصر..

كانت "رفيف" تحاول دائما بث روح التفاؤل في أصدقائها بما تكتبه من منشورات على "فيس بوك" تحثهم فيها على التحلي بروح إيجابية واثقة من دحض حجج الخونة التي كانوا يحاولون نشرها من خلاص صفحاتهم لزعزعة ثقة المصريين في النصر.. وفي قدرة الأجهزة الأمنية على القضاء على الإرهاب.. وأنستها فرحتها بأخبار القبض على عدد من المتطرفين وإغلاق صفحاتهم التحريضية أمر "وليد" لبعض الوقت..

قلبها في تلك الأيام لم يكن ينبض سوى من أجل الوطن.. وعقلها لم يكن يشغله سوى همومه.. مصر هي العشق الأبدي الذي لا ينتهي والذي لا يتبدل ولا يستطيع الزمن أن يهزمه في قلوب محبيها..

رن هاتفها.. وأضاءت شاشته "باسم طارق منير"..

- صباح الخير يا رفيف.. عرفتي الأخبار الجديدة..

- طبعا عرفت.. وفرحانة جدا.. ربنا يحمي مصر من كل شر ويعينكم على كل خاين وإرهابي..

- أنا بتصل بيكي عشان أبلغك شكر القيادات على المجهود اللي أنتي عملتيه الأيام اللي فاتت..

- لا شكر على واجب يا طارق.. وأنا معملتش غير الواجب ومهما أعمل عشان بلدي مش هوفيها حقها عليا.. روحي نفسها تهون عشانها.. الشكر ليكم أنتم يا حماة الوطن..

أنهى "طارق" حديثه معها ليتابع سير العمل بحماس مشتعل.. حين هاتفه أحد الأشخاص الذي بدا على صوته التأثر البالغ من مصاب جديد أصاب قلب الوطن..

- طارق.. مش عارف أبلغك الموضوع إزاي.. بس أنا آسف حقيقي، أخوك الصغير استشهد من ساعة وهو واقف في الكمين.. قبضنا على الإرهابي اللي ضرب عليه نار.. وبدأنا تحقيقات معاه.. البقاء لله.. جثمان الشهيد في طريقه من الشيخ زويد للقاهرة.. تمتم طارق بصوت حزين بكلمات لم يستطع محدثه تبينها قبل أن ينهي المكالمة ويخيم عليه الوجوم لبضع دقائق ثم استعاد رباطة جأشه من جديد وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة ساهمة حزينة واغرورقت عيناه بدموع أبت أن تغادر مقلتيه.. عاود العمل من جديد عازما على الثأر لأخيه..

كانت الحياة في القاهرة تسير في مسارها العادي ككل يوم.. اعتاد الناس على وجود قنبلة هنا أو هناك.. على هجوم إرهابي من وقت لآخر على أحد أكمنة الجيش أو الشرطة.. أو على مسيرة بائسة العدد لجماعة الإخوان الإرهابية.. كان "وليد" قد وصل إلى معسكر الأمن المركزي مبكرا عن موعد عمله بما يقارب النصف ساعة.. وقبل أن يتوجه إلى مكتبه ذهب إلى مكتب رئيس القطاع لمحادثته في أمر مهم كان قد عقد نيته عليه..

- صباح الخير يا سيادة اللوا.. كنت عايز أطلب من حضرتك طلب وأرجو الموافقة عليه..

- صباح الخير يا وليد.. خير.. عايز أجازة ولا نقل لمعسكر تاني..

- لا ده ولا ده يا فندم.. لا بحب الإجازات ولا عندي مشاكل هنا تخليني أطلب نقلي.. أنا عايز أكون في المأمورية المكلفة بالقبض على أبو سفيان الأنصاري.. أنا عارف إنه هرب المرة اللي فاتت وأكيد الداخلية مش هتسيبه هربان كتير.. وأنا عايز حضرتك تكلفني أنا بالمهمة دي لما يجيي وقتها..

نظر رئيس القطاع لوليد نظرة متفحصة حاول منها أن يتبين حقيقة ما يدور في عقله.. فبادره "وليد" قائلا حتى يوفر عليه الوقت والجهد ويوفر على نفسه أن يطرح اللواء عليه أسئلة لا يرغب هو في الإجابة التفصيلية عنها..

- حضرتك عارف إن النقيب ماجد كان صديق عزيز عليا وإنه أنقذ حياتي قبل كده وقت فض اعتصام رابعة.. وأنا وعدته يوم الجنازة إني هاخد له حقه من اللي قتلوه.. فيا ريت يا فندم تتكرم وتوافق عشان أعرف أرد الجميل لماجد وأوفي بوعدي معاه.. وبعدين حضرتك في كل الأحوال هتكلف ظابط للمهمة دي.. فياريت يكون أنا الظابط ده.. أكون متشكر لحضرتك جدا..

- حاضر يا وليد هنفذ لك رغبتك وأول ما الداخلية تبعت لي بمكان وموعد العملية هرشحك لها.. وربنا معاك..

- متشكر لحضرتك يا فندم.. استأذن أنا..

تنهد "وليد" بارتياح بعدما غادر مكتب اللواء رئيس القطاع.. أحس أن الوقت قد قرب جدا من تحقيق هدفه.. وأن الثأر بات وشيكا.. فإلقاء القبض على "أبي سفيان الأنصاري" يعني أيضا هتك ستار صفقات السلاح المشبوهة التي يقوم بها "سعد التهامي".. ويعني كذلك فرصة قلما يجود بها الزمان في أن يرد له الصفعة صفعتين.. فهو لم ينس ما فعله به ذات يوم وكيف أساء إلى سمعته حين أقحم اسمه في إحدى تلك الصفقات التي كان يعقدها مع مجموعة من الخارجين عن القانون.. والذين يحتمون بالجبال من قوات الأمن.. حتى كاد أن يفقد وظيفته في وزارة الداخلية بتهمة استغلال النفوذ والتربح من الوظيفة..

علم وليد بالأمر حين تم استدعاؤه من بعض قيادات الوزارة لسؤاله بصفة ودية قبل أن يحال الموضوع إلى التحقيقات.. لم يكن يتوقع أن تصل كراهية "سعد التهامي" له إلى حد تدمير سمعته والقضاء على مستقبله.. فلم يكن رجل المال والأعمال يرحب به زوجا لابنته الوحيدة "سحر".. خاصة بعد أن تحرى عنه وعلم أنه من الضباط الجادين في عملهم مما يعني أنه لن يستفيد من وظيفته في أعماله وصفقاته بل قد يقف حجرة عثرة في طريق بعض هذه الأعمال والصفقات..

ولكن أمام إصرار ابنته التي ما كانت لتقبل هزيمتها أمام غريمتها "دينا".. اضطر ممتعضا لقبول زواجها به. إلا أنه لم يستطع أن يظهر لوليد أي ود طيلة السنة عمر هذا الزواج ولا من قبيل المجاملة أو النفاق.. بل على العكس كان دائما ما يتعمد تعكير صفوه بشكاوى ابنته المستمرة من مستوى المعيشة معه مقارنة بما كانت عليه في بيته هو قبل زواجها.. حاول مرارا أن يستقطبه للعمل معه أو على أقل تقدير الإفادة من منصبه ووظيفته كضابط بوزارة الداخلية لتقديم تسهيلات أو استثناءات لبعض رجال الأعمال من أصدقائه لزيادة دخله وتحسين مستوى معيشة ابنته إلا أن "وليد" كان دائما ما ينهره ويصده عن الاستمرار في تلك المحاولات البائسة..

إلا أن "سحر" نفسها كانت أيضا دائمة الإلحاح على "وليد" بمشاركة والدها في بعض صفقاته وأعماله بحجة تأمين مستقبل ابنهما "شادي" الأمر الذي فاقم حدة الخلافات بينهما.. إلى أن كان ذلك اليوم الذي عرف فيه من قيادات الوزارة بأمر صفقة السلاح التي أقحم "سعد التهامي" اسمه بها.. والتي تم حفظ ملفها في الوزارة بعد التحقق من أن "وليد" لا يمت بأي صلة للموضوع لا من قريب ولا من بعيد..

كان "التهامي" في ذلك الوقت لا يزال عضوا بالبرلمان ويتمتع بالحصانة التي أتاحت له ولغيره من بعض رجال المال والأعمال أن يحققوا ثروات طائلة بطرق غير مشروعة.. فجاءت تلك الصفقة المشبوهة لتسطر كلمة النهاية الحتمية لزواج "سحر" من "وليد" الذي كان قد أبلغها بعزمه على طلاقها وإصراره عليه ليطالبه "التهامي" بدفع مبلغ المليون جنيه التي وافق على كتابتها مهرا مؤجلا في عقد الزواج حين كان ساذجا ومخدوعا في تلك الفتاة التي أغدقت عليه الحب بلا حساب حين أرادت أن تسلبه من أخرى رغبة في تأكيد تفوقها الأنثوي عليها.. والتي حين قرر هو الزواج بها لم يكن في نيته تطليقها ذات يوم.. حينها قرر وليد أن يجعل "التهامي" يوقع على صفقة من نوع آخر.. هو من يحدد مواصفاتها ويضع بنفسه شروطها.. فكما كان سجل سعد التهامي حافلا بالصفقات المشبوهة كان متخما بالعلاقات النسائية المشبوهة أيضا.. ونجحت خطة "وليد" في مساومة "سعد التهامي" على طلاق ابنته على أن تتنازل عن مبلغ المليون جنيه مقابل أن يقوم هو بتولي أمر تلك المرأة المجهولة – والتي لم تكن سوى

"مروة" - وإقناعها بالترغيب أو الترهيب بعدم تحرير أي محاضر ضد جد حفيده بل وعدم التعرض له مرة ثانية..

(27)

فوق مكتب ذلك الرجل الملقب بالثعلب الجسور كان هناك مظروف مغلق أصفر اللون.. وما أن فتحه الرجل حتى ابتسم ابتسامته المعهودة التي تشي بدهائه المعروف عنه.. رفع بعدها سماعة الهاتف واتصل على الفور بحازم صقر..

- أخبارك إيه يا سيادة العقيد؟ فاضي إمتى عايز أشوفك ضروري..

- الحمد لله يا سيادة اللوا.. الوقت اللي تؤمر بيه سعادتك هتلاقيني عندك..

- لو فاضي النهارده.. أنا في انتظارك في مكتبي بعد ساعتين..

- تمام يا فندم أوامر سيادتك.. ساعتين إن شاء الله وأكون في مكتب سعادتك..

انطلق "حازم صقر" على الفور بسيارته إلى مكتب الثعلب الجسور وهو يفكر في أمر المقابلة المفاجئة والعاجلة التي لا تحتمل التأجيل..
استقبله الرجل كالعادة بحفاوة وترحاب.. ثم سلمه المظروف الذي كان قد أعاد إغلاقه.. وهو يقول له بابتسامته الواثقة المعهودة ونبرة صوته العميقة..

- تقدر تضيف الفيديو ده لمجموعة الفيديوهات اللي عندك.. ده اجتماع بين سعد التهامي وكريم الصفتي واحد من رجالة أبو سفيان الأنصاري وهما بيتفقوا على صفقة السلاح اللي هتستخدمه عناصر الجماعة يوم 28 نوفمبر.. وصفقة تانية لتسليح العناصر المتطرفة في شمال سيناء اللي بتشن هجمات إرهابية على رجالتنا هناك..

- أوامر سيادتك..

- بس الفيديو ده مش للعرض حاليا.. لما يجي وقت عرضه هبلغك..

- حاضر يا فندم..

- فكرت ولا لسه في عرض سمير شاكر؟!

ارتفع حاجبا "حازم صقر" من الدهشة وعلامات استفهام عديدة ترتسم على وجهه.. فلم يكن أبلغ الرجل بعد وكان ينتوي مفاتحته في الأمر بعد الانتهاء من مناقشة ما طلب لقائه من أجله..
انطلقت ضحكة عالية مقتضبة من الرجل.. وهو ينظر إلى حازم بعينيه العميقتين.. ثم بادره قائلا..

- أنت الراجل بتاعنا يا حازم.. وآن أوان إن الحقيقة كلها تتعرض على الناس

وبالتفاصيل وأنت الوحيد اللي هتقدر تشرح للناس علاقات المتآمرين والخونة ببعض.. كلم سمير وقوله إنك موافق.. طبعا هو ميعرفش إن الموضوع مترتب ومش هوصيك مش لازم يعرف حاجة..

انبسطت أسارير "حازم" وهو يومئ برأسه علامة على الموافقة..

- تمام يا فندم هتصل بيه وأبلغه موافقتي وأبلغ حضرتك بالاتفاق اللي هيتم بيني وبينه وبخطة العمل في البرنامج..

- ربنا يوفقك أنا عارف إنك هتأدي المهمة دي بنجاح.. مش هعطلك أكتر من كده وبلغني بالجديد دايما..

- أشكرك يا سيادة اللوا.. إن شاء الله أكون دايما عند حسن ظنك وعند حسن ظن مصر..

(28)

لأنها امرأة استثنائية فكل ما كان يفعله من أجلها كان أيضا استثنائيا.. لم يفكر قط أن يحصل على إجازة في غير موعدها المحدد.. ولكنه هذه المرة لم يكن يطيق الانتظار.. طلب إجازة لمدة يومين من قائد وحدته الذي أبدى استغرابه في البداية ولكنه وقع له بالموافقة عليها فخالد يحيى كان مثالا للضابط الملتزم والجاد في العمل.. كما أن الأوضاع في الوحدة كانت تسمح بذلك..

لم يشأ هذه المرة أن يخبرها بما يعتمل في قلبه من وجد من خلال رسائل "فيس بوك".. فقرر أن يهاتفها مباشرة بعدما حصل على موافقة قائد الوحدة على طلبه..

- رفيف.. وحشتيني.. مش لاقي كلام يقولك وحشتيني أد إيه.. بس وحشتيني جدا..

- خالد.. إيه المفاجأة الجميلة دي.. مبسوطة جدا إني سمعت صوتك النهارده واطمنت عليك..

- عندي ليكي مفاجأة تانية وأتمنى تكون أجمل..

- أي حاجة منك هتكون جميلة.. يا ترى إيه هي المفاجأة؟
- أنا أخدت أجازة لمدة يومين عشان أشوفك.. حكون في القاهرة بعد بكرة إن شاء الله.. والمفاجأة هتعرفيها لما نتقابل..

أجابته في فرحة حقيقية طفولية وتلقائية..

- إني آشوفك دي أجمل مفاجآة في الدنيا.. مستنياك.. توصل بالسلامة..

- تحبي نتقابل فين؟

- مش عارفة.. مش في بالي أي مكان محدد..

- طيب سيبيني أنا أكمل لك المفاجأة.. واختار المكان على ذوقي..

بعدما أنهى حديثه معها.. اتصل من فوره بأحد أصدقائه في القاهرة طالبا منه أن يقوم بحجز اليخت الخاص الملحق بمركب النايل سيتي بالزمالك لمساء بعد غد..

ظلت "رفيف" ممسكة بهاتفها المحمول تنظر إلى شاشته المزينة باسم "خالد" وابتسامة دهشة ترتسم على شفتيها وهي تستعيد كلماته..

ما أسعد امرأة تهديها المفاجأة حب رجل ويهديها رجل مفاجأة حب.. كان شعورها بخالد مختلفا عما أحسته في أول لقاء لها بوليد فربما أخطأت تفسير خفقات قلبها في ذلك الحين الذي كان يمارس هوايته المفضلة في التحدي.. تحدي "وليد" وتحدي الأخريات.. فوليد يمكن أن يكون أثار خيالها بذلك النوع من الإثارة الذي يدفع البعض للمضي نحو المجهول لا لشيء إلا لمحاولة اكتشافه وسبر أغواره.. كانت لعبة الشد والجذب التي يتقن ممارستها تروق لها في البداية ولكنها سأمتها بالوقت.. لم تعد تثير خيالها أو فضولها،.. لم تعد تعجبها أو ترغب في الاستمرار فيها..

كان يغرقها بمد كلماته في دواماته المنهكة.. ثم يجدب أوقاتها بذلك الجزر المفاجئ لميقات حب غير معلوم.. وما بين المد والجزر يغرق الشعور بالأمان شيئا فشيئا.. ليطفو الحب بعده على سطح العلاقة جثة هامدة.. فالأمان.. هو ما تحتاجه المرأة من رجلها.. أن تمنح امرأة إحساسا بالأمان وكأنما منحتها الوجود بأكمله.. إن الأمان هو الأكسجين الذي يبقى الحب على قيد الحياة.. والأمان هو ما استطاع "خالد" رغم المسافة المكانية التي تفصل بينهما أن يمنحها إياه.. أن يملأ به كيانها وقلبها وعقلها..
إن رجلا بإمكانه أن يمنح امرأته الأمان هو رجل يحب.. وإن رجلا يعجز عن منح امرأته الشعور بالأمان لهو رجل يمارس لعبة الحب.. وفارق كبير بين رجل يحب ورجل يجعل من الحب لعبته..

هاتفها "خالد" في اليوم التالي وقبل تحركه مباشرة من وحدته العسكرية بشمال سيناء.. وأبلغها أنه سيمر عليها بسيارته في تمام الساعة السابعة مساء الغد ليصطحبها للعشاء.. في الموعد المتفق عليه حين خرجت من بوابة العمارة التي تقطن بها وجدته واقفا مستندا على سيارته وهو يحمل في يده باقة ورد كبيرة حمراء منتقاة بعناية ومنسقة في تناغم.. وما أن رآها حتى تقدم نحوها ليهديها وروده وهو يلثم ظهر كف يدها حين صافحها برقة بالغة.. ثم فتح

لها باب السيارة.. كانت تتأمل كل ما يفعله بانبهار.. فكل ما يفعله كان يشعرها أنها بالفعل ملكة متوجة على عرش أيامه.. وعندما جلس خلف مقود السيارة لينطلق بها حيث الجنة الموعودة التي أعدها لهما في ذلك المساء.. التفت إليها وطاف بعينيه على ملامح وجهها وكأنه يحتضها بكل ما يحمله لها في كيانه من حب.. كان قلبها يرقص على أنغام لحن حلم.. وكان قلبه يعزف سيمفونية حب..
أوقف سيارته في شارع سراي الجزيرة بالزمالك.. ثم نزل منها أولا ليفتح الباب المجاور لها إمعانا في تدليلها وتقديرها.. ثم قال وهو يمد لها يده لتمنحه يدها..

- تسمح لي مولاتي..

منحته يدها وهي لا تزال تنظر إليه في انبهار وهي تكاد تعانقه بابتسامتها كطفلة صغيرة فرحة بهدايا السماء في ليلة عيد..

قادها محتضنا يدها إلى وجهتهما وبادر بسؤال العامل الذي يقف على مدخل المرسى عن حجز باسم المقدم "خالد يحيى".. فأكد له العامل وجود الحجز وطمأنه أن كل شيء على ما يرام وكما أراد..

كانت "رفيف" تسير إلى جواره وكأنها تسير في حكاية من تلك الحكايات التي ترويها الجدات لأحفادهن قبل النوم عن ذلك الفارس الذي جاء من بلاد بعيدة لينقذ الأميرة الجميلة من وحشتها ووحدتها.

وما أن وصلا إلى باب اليخت حتى طلب منها أن تغمض عينيها، فأغمضتهما وهي تتنهد استسلاما لذلك الحلم اللذيذ الذي تحياه معه..

كان لا يزال ممسكا بيدها وهو يخطو بها إلى داخل اليخت الخاص.. وبعد أن أصبحا بداخله طلب منها أن تفتح عينيها.. وما أن فتحتهما حتى شهقت شهقة إعجاب فرحة وهي ترى أوراق الورد الحمراء المتناثرة في كل مكان على أرض اليخت.. وبالونات ملونة تحيط بالطاولة المستديرة والوحيدة الموجودة في منتصفه والمخصصة لعشاء تضيئه الشموع. وتلك الموسيقى الهادئة التي تنبعث بصوت جميل وكأنها أنغام تطل عليهما من السماء.. لتزيد المكان جمالا وروعة..

كلما همت أن تعبّر عن انبهارها به وبما أعده لها من مفاجآت وليست مفاجأة كلما هربت كلماتها منها أمام هذا النهر المتدفق من الحلم.. فلم تعد تدري ما تقول.. غير أنها كانت تنظر إليه نظرة سعادة حقيقية..

تناولا العشاء على ضوء الشموع وأنغام الموسيقى.. ثم دعاها للرقص.. وكأنه يريد أن يحيا كل أحلام حبه في تلك السويعات القليلة التي يقضيها معها تلك الأمسية..

ضمها إليه في حنان.. وهو يمسح على شعرها ويهمس لها..

- بحبك يا رفيف..

دق قلبها بعنف وهي تنظر في عينيه اللتين كانتا تبوحان بالحب قبل أن ينطق به لسانه.. إنه ليس بالاعتراف الجديد.. لقد باح لها بحبه من قبل بألف معنى ومعنى.. ولكنها المرة الأولى التي يقولها لها حرفا ومعنى.. ودون أن تجيبه بأي كلمة.. أغمضت عينيها والتصقت به أكثر وأكثر، وهي تضع رأسها على صدره وكأنها تحتمي به من هواجسها ومن قدر تخشاه..

(29)

بإمكانك أن تغدو أملا أو تغدو ألما.. أن تصبح لغما أو تصبح نغما.. الكل متاح والكل مباح، ولك وحدك مطلق الاختيار..

لم يكن في نيته أن يحبها حين التقاها أول مرة.. ولكن الحب هو قدر الأقدار الذي لا ملجأ منه ولا مف..، الحب هو الذي يختار وليس بإمكاننا أن نعصى له أمرا.. هكذا اختار وهكذا سار.. كان اختياره ألا يحب ولكنه سار نحو الحب معصوب العينين بلا أدنى مقاومة.. الحب وحده كان صاحب الأمر والنهي.. وصاحب القرار.. وصاحب الاختيار.

كانت الأيام تمضي بوليد بلا معنى.. بطيئة.. مملة.. وكأنه أصبح يقضي فترة عقوبة في سجن الوقت منذ أن أصدرت عليه "رفيف" حكم غيابها.. أغرق نفسه في العمل أكثر وأكثر كي ينشغل عن التفكير فيها.. بعد أن أعلن قلبه التمرد وانقلب الحب عليه..

كان يجلس كعادته في مكتبه في المعسكر يكتب تقريرا عن إحدى العمليات التي كان مكلفا بها في الأيام السابقة حين رن هاتف المكتب.. التقط سماعته وهو لا يزال منشغلا بما يكتبه..

- وليد.. جهز نفسك في عملية بعد كام يوم للقبض على أبو سفيان الأنصاري.. هيتم تحديد المكان والزمان وهبلغك قبلها مباشرة.. يعني تبقى متواجد باستمرار وموبايلك مفتوح 24 ساعة.. استعد يا بطل.. مش عايزينه يهرب مننا المرة دي..

- تمام يا فندم.. أنا حقيقي متشكر جدا يا سيادة اللوا..

ابتسم وليد ابتسامة ظفر وإصرار عريضة كانت تشي عن قرار اتخذه بالثأر والانتصار أيضا.. فلم يعد هناك من الوقت ما يكفي لتأجيل بعض القرارات المهمة الأخرى.. الحسم أصبح هو الاختيار الوحيد المتاح.. التقط هاتفه المحمول من على المكتب.. بحث عن اسم ما في قائمة الأسماء ثم ضغط زر الاتصال..

جاءه صوتها كسولا متثائبا.. لم يتغير أي شيء فيها.. نفس الأنوثة المتفجرة.. ونفس العادات السيئة..

قال لها بنبرة مرحة كتلك التي كان يوقظها بها في بعض المرات حينما كانا لا يزالان ينهلان من نبع الأيام الخوالي معا..
- إنتي لسه فيكي العادة الغريبة دي تسهري طول الليل وتنامي طول النهار؟

أجابته وهي لا تزال تتثاءب رغم تلك المفاجأة غير المتوقعة..

- وليد.. للأسف أيوه.. لسه متعودة على كل حاجة اتعودت عليها من وقت ما كنا مع بعض..

صمت للحظات وقد فهم مغزى كلامها وبدا لها صمته دهرا طويلا.. قبل أن يستعيد صوته، ولكن هذه المرة لم يستطع أن يضفي على صوته ذات النبرة المرحة اللامبالية..

- مروة أنا اتصلت بيكي مخصوص النهارده عشان أقولك حاجة واحدة.. حسيت إني محتاج أقولها وحسيت إن حقك تسمعيها مني.. أنا آسف.. آسف على كل حاجة.. إنتي ست كويسة جدا بس هي الظروف اللي كانت وحشة معاكي..

كانت مروة تستمع إلى كلماته ودموع صامتة تنساب على وجنتيها.. قبل أن تجيبه وهي ساهمة..

- وليد.. أنا عايزة أقولك..

قاطعها قائلا بلهجة حانية:

- أرجوكي متقوليش حاجة يا مروة.. أنا عارف وحاسس من غير ما تقولي.. بس كنت بحاول أعمل نفسي مش فاهم لأسباب كتير.. المهم خلي بالك أنتي من نفسك وطمنيني عليكي دايما.. هتفضلي حد غالي عليا وهتلاقيني جنبك أي وقت تحتاجيلي..

ثم أنهى المكالمة على عجل.. خشي أن ينكأ جرح حب في قلبها لم يندمل بعد..

أما هي فقد أجهشت ببكاء كانت قد نسيته منذ زمن طويل.. ذلك البكاء الذي يغسل الروح من أوجاعها.. ويغسل القلب من ذنب حب غافله ذات يوم فلم يبق ولم يذر.. اليوم فقط شعرت بأنها تستعيد نفسها وأيامها وإحساسها بذاتها.. منحها اعتذاره واعترافه القوة الكافية لاتخاذ قرار مصيري كانت تؤجله ريثما يصدر الحكم ببراءة قلبها..

تنهد "وليد" تنهيدة ارتياح بعد مكالمته معها وكأنه أزاح عبئا ثقيلا كان يجثم على صدره منذ زمان بعيد.. ثم ضغط زر الاتصال ليجري المكالمة الثانية التي كان قد عزم على إجرائها بعدما أخبره رئيسه في القطاع بقرب موعد تحقيق أمنيته التي طال انتظاره لها..
- آلو.. أيوا يا سحر.. أنا مش متصل بيكي النهارده أتخانق ولا عايز أتخانق معاكي من الأساس.. أنتي في النهاية أم ابني الوحيد.. كل اللي طالبه منك تخلي بالك من شادي خصوصا الأيام الجاية.. وقوليله بابي بيقولك إنه هو آسف..

كان صوته يحمل الكثير من معاني الود والتودد التي لم تعهدهما في صوته منذ أن نشبت أظافر الخلافات في علاقتهما.. والتي كانت أيضا قد نسيتهما تماما بعد انقضاء فترة شهر العسل حين بدأت الحرب الباردة بينهما في الاشتعال..

- مالك يا وليد.. كلامك ده أكيد فيه حاجة وراه.. فيه إيه؟!

سألته متعجبة بنبرة هادئة كانت قد هجرتها منذ زمن بعيد وهي تتحدث إليها..

- أنا آسف يا سحر.. مضطر أقفل عشان عندي شغل كتير أوي.. بوسيلي شادي.. وخلي بالك منه.. هو مالوش ذنب في أي خلافات كانت بينا.. ومالوش ذنب في أي حاجة حصلت أو هتحصل..

أنهى مكالمته معها وتركها غارقة في دهشة موحشة وأسئلة حيرى تبحث عن إجابات ضلت الطريق..أغمض عينيه في أسى وصورة "شادي" تحتل مخيلته.. بقيت آخر مكالمة رغب في إجرائها والتي كان يؤجلها كما كان يؤجل اعترافا أضنى قلبه وأرق لياليه.. أطال النظر إلى اسمها وهو يحتضن حروفه بعينيه قبل أن يضغط زر الاتصال.. انتظر فترة ليست بالوجيزة قبل أن تجيبه بصوت ينكره ويسكنه فراغ المشاعر..

- آلو.. أهلا وليد.. أخبارك إيه؟!

- رفيف.. أنا عارف إنك زعلانة مني.. وعارف إن أي كلام أنا هقوله مش هيغير حاجة خلاص بالنسبة لك.. زي ما أنا عارف إني أنا السبب في إنك اتغيرتي من ناحيتي وإني أنا اللي معرفتش أحافظ عليكي.. كل ده أنا عارفه بس أنا عايز أقولك حاجة أنتي مش عارفاها حتى لو مش هتفرق معاكي بس لازم أقولها..

كانت "رفيف" تنصت إليه وكأنها تمثال شمعي.. شيء ما تغير في مشاعرها تجاهه لا تدري ما هو.. لم تعد دقات قلبها ترقص فرحة لسماع صوته.. لم تعد تفقد أعصابها أيضا من حضور مفاجئ بعد غياب طويل.. وبذات الصوت الفارغ من أية انفعالات تعلن أنه ما زال على قيد المشاعر.. سألته وهي غير مبالية بالإجابة..

- خير يا وليد؟ عايز تقول إيه؟!

- رفيف أنا بحبك.. ومحبتش في حياتي ست أد ما حبيتك.. بحبك حقيقي وعمري ما أتمنيت إن ست تشاركني في حياتي وأيامي زي ما بتمنى ده معاكي..

أصابها الوجوم من كلماته.. لماذا يعترف إليها الآن بحب تركه يجابه الموت وحده دون أن يمد له يد العون.. ودون أن يلتفت إليه وهو يغرق في دوامات التجاهل التي كان يتعمد أن يلقيه فيها دون اهتمام.. لماذا يتعمد دائما أن يدور بها في متاهات الحيرة والشتات..

خذلها صوتها الآن وكأنها عصفور نسي كيف يكون الغناء.. حاولت أن تجد كلمات مناسبة ترد بها عليه..

- وليد.. أنا.. أنا..

- متقوليش حاجة دلوقتي يا رفيف.. أنا قررت اعترفلك بحبي لأن كان لازم تعرفي إنك عمرك ما كنني بالنسبة لي زي أي ست عرفتها في حياتي.. وكان لازم كمان تتأكدي من حبي ليكي..

ساد صمت بينهما إلا من صوت أنفاسها الواهنة.. قطعه صوته وهو يطلب منها أن تمنح قلبه فرصة أخيرة للحياة..

- رفيف أنا آسف على أي لحظة تعب اتسببت لك فيها.. أنا مش طالب منك غير إنك تدي لقلبي فرصه تانية.. الحب دايما يستحق إننا نديله فرصة ولو أخيرة.

أن تدعي الحب فهذا أمر يسير.. أما أن تبرهن عليه فذاك هو الصعب بعينه.. فليس كل من يردد كلمة الحب يحب بحق.. وليس كل من يتغنى بالحب صادقا فيما يقول.. كثيرون هم من يدعون كذبا وزورا حب الوطن، ولكن قليلون من يحبونه صدقا وعملا.

كانت الخيانة لا تزال مستمرة إلا أنها لم تعد مستترة كما كانت من قبل.. وبات كشف حقيقة الخونة وشيكا.. الأمر الذي جعل بعضهم يحاول القفر من المركب قبل مرحلة الغرق.. فتحولت فجأة شاشات القنوات الفضائية إلى ساحات لمعركة شرسة بين شركاء الخيانة بالأمس القريب وغرماء القسمة في الوقت الراهن.. فكما يقولون عندما يختلف اللصوص تظهر المسروقات..

كان كل شيء يسير في اتجاه تسهيل مهمة "حازم صقر" في الأيام المقبلة والذي كان قد أبلغ "سمير شاكر" بموافقته على العرض المقدم له من القناة الفضائية التي يعمل بها الأخير كما طلب منه الثعلب الجسور.. على أن يتم أولا عمل الإعلانات التنويهية اللازمة عن البرنامج قبل موعده بشهر لضمان تحقيق نسبة مشاهدة عالية.
كان الإعداد للبرنامج يجري على قدم وساق.. كما كان "حازم" يستعد لخوض غمار معركته الأخيرة ضد الخونة من أجل إعلاء كلمة الوطن.. ومن أجل رد اعتباره واسترداد حقه من كل من باعوا أرضه وتآمروا على عرضه بثمن بخس..

وما أن أعلن "حازم" عزمه على كشف جميع الحقائق عن كل الخونة بلا استثناء وعرضها كاملة على الرأي العام دون مواربة أو مجاملة لأي متورط في الخيانة.. حتى بدأ يتلقى تهديدات عديدة بالقتل من أشخاص معلومين وآخرين مجهولين.

كانت خيوط المؤامرة متشابكة إلى الحد الذي يصعب التكهن بما سينتهي إليه كل خيط منها.. وإلى أي طريق سوف يؤدي.. ولكن الهروب من ميدان المعركة لم يكن أبدا من شيمه ولن يكون حين يتعلق الأمر بوجود الوطن فلا خيار إلا الزود عنه مهما كلف الأمر من ثمن.. إلى أن كان يوما.. حين رن جرس هاتفه برقم غير مسجل لديه..

- آلو.. حازم باشا صقر..

- أيوا يا فندم مين حضرتك؟

- سعد التهامي معاك.. أكيد تسمع عني..

- أكيد طبعا أسمع عنك.. دي مصر كلها بتسمع عنك.. خير.. أؤمر..

- أنا معجب جدا بحماسك وبنشاطك.. وحابب أساهم في العمل الوطني العظيم اللي أنت ناوي تقدمه للناس قريب.. مستعد أكون راعي للبرنامج بتاعك،،

منذ اللحظة التي عرف فيها "سعد التهامي" نفسه إليه كان قد فطن إلى السبب الحقيقي وراء هذه المكالمة المفاجئة.. ولكنه لم يرغب في أن يفسد متعته الشخصية وهو يرى الخصم يقع في فخ تحقيق انتصار زائف في معركة حسمت نتيجتها منذ البداية.. فبعدما انتهى "سعد التهامي" من تقديم عرضه.. كان الوقت قد حان لينقض "حازم" عليه كما ينقض الصقر على فريسته.. ليسأله بنبرة واثقة لا تخلو من التهكم..

- والتمن إيه؟

- تمن إيه يا حازم باشا.. ده أنا اللي هدفع فلوس للقناة رعاية للبرنامج..

- كل حاجة في الزمن ده ولها تمن يا سيد سعد، وأنا راجل بحب الوضوح في التعامل..

- كده حضرتك قصرت عليا الطريق وسهلت عليا الكلام.. هبعتلك شيك بمليون جنيه ومعاه قايمة ببعض الأسماء اللي أتمنى إن سيرتها تبقى بعيدة عن أي كلام هتقوله في البرنامج..

أجابه بلهجة حاسمة وحادة ومقتضبة وكأنه يصفعه بكلماته..

- آسف يا سيد سعد.. إنت اتصلت برقم غلط..

ثم بادر بإغلاق الخط دون أن ينتظر من محدثه ردا أو تبريرا لذلك العرض الذي قد يغري البعض لبيع الوطن في مزاد الخيانة العلني.. فقد كان حازم يعلم علم اليقين أنه بتلك الصفعة قد أثار حفيظة "سعد التهامي" ضده وأن تهديدا جديدا بات في انتظاره..

(31)

كانت وتيرة الأحداث تتسارع مع اقتراب يوم الثامن والعشرين من نوفمبر.. فما بين محاولات مستمرة ومستميتة من هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الدين ومتحدثين باسم الله على الأرض من إرهاب الناس وبث الرعب في نفوسهم.. وما بين نشاط مكثف لجميع الأجهزة الأمنية لإلقاء القبض على المحرضين على الثورة المسلحة ومن يؤازرونهم بالسلاح أو بالمال.. كان الوطن لا يزال يئن من جراحه التي ما زالت تنزف دماء غالية على أسفلت شوارعه ورمال شريطه الحدودي..

وكانت "رفيف" تتابع أخبار الحرب على الإرهاب في شمال سيناء بقلق مضاعف بعد أن عاد "خالد" إلى وحدته العسكرية هناك وهو قلق على مصير وطن ما زال في مهب الريح ومصير حب ما زال في مهده.

أما هو فقد كان يطمئنها برسائله التي حاول جاهدا ألا تنقطع عنها.. برغم من شراسة المعركة الدائرة على الحدود.

"مش عايزك تخافي من أي حاجة يا رفيف ولا حتى عليا.. أنا عايزك تفضلي متطمنة.. عايزك دايما تحسي بأمان.. أنا مش بحارب بس علشان أحمي مصر أنا بحارب علشان أحميكي إنتي كمان"..

هكذا قال لها ذات مرة وهي تحكي له عن مخاوفها وعن ذكرياتها المريرة التي كانت تعاودها من حين إلى آخر وعن إحساسها الخوف الذي لازمها وقت الانفلات الأمني أثناء أحداث يناير 2011..

كانت كلماته دائما بمثابة الملجأ الذي كانت تهرع إليه احتماء به كلما قرأت خبرا من تلك الأخبار التي كانت بعض المواقع الإخبارية وبعض الصحف اليومية تتناقلها عن تهديدات العناصر المتطرفة تحت ما يسمى بالثورة الإسلامية..

شهد الوطن في تلك الأيام حالة أشبه بالمنافسة الإعلامية ما بين الأجهزة الأمنية وأعداء الوطن من متآمرين ومتطرفين.. ففي الوقت الذي كان الإعلام المتواطئ يروج للشائعات التي من شأنها أن تدعم أكذوبة قدرة المتطرفين على السيطرة على مصر بقوة السلاح لبث الرعب في نفوس المصريين من أجل خدمة أهداف المؤامرة.. كانت الأخبار التي ترد عن الأجهزة الأمنية تؤكد تمكن تلك الأجهزة من إلقاء القبض على عدد كبير من العناصر المتطرفة التي أعلنت مشاركتها في الثورة المسلحة..

وكان المصريون يتناقلون تلك الأخبار على "فيس بوك" بفرحة عارمة وبتأييد مطلق للأجهزة الأمنية وللدولة للقضاء على جميع العناصر الإرهابية والمتطرفة داخل مصر وعلى حدودها.. بعد سقوط آخر ورقة توت عن سوءاتهم.. وبعدما سقطت عن وجوههم القبيحة أقنعة الورع والتقوى الزائفة يوم رفعوا للشعب شعار "يا نحكمكم يا نقتلكم".

بدأ العد التنازلي.. فكان عدد من القوات الأمنية يتأهب لمداهمة أكثر من بؤرة إرهابية في ذلك اليوم المشهود.. وأصبح "وليد" أيضا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه المنشود وإصابة هدفه الذي ظل زمنا يصبو إليه.. تحركت قوات الأمن في واحدة من أكبر عمليات مداهمات أوكار العناصر المتطرفة على مستوى الجمهورية.. فاتجهت كل مجموعة إلى الوجهة المحددة لها.. كانت المجموعة التي تضم "وليد" تتجه إلى المنزل الذي يختبئ به "أبو سفيان الأنصاري" في إحدى المناطق النائية بمدينة نصر بعد وضع تفاصيل خطة الهجوم وتحديد دور كل فرد من أفراد القوة الأمنية بها..

وصلت القوة الأمنية إلى المنزل في تمام الساعة الثامنة مساء.. وبعد أن طوق العساكر المنطقة المحيطة به.. بدأ الضباط في التحرك وفي مقدمتهم "وليد" الذي كان يمسك بمسدسه في وضع تأهب واستعداد لإطلاق الرصاص في حالة ما إذا ما بدأ الإرهابيون في استخدام الأسلحة النارية للمهاجمة..

انتشر عدد كبير من عساكر الأمن المركزي أمام المنزل في الوقت الذي رافق عدد قليل منهم "وليد" ومن معه من الضباط..

وما أن صعدت عناصر القوة الأمنية إلى الطابق الثاني حيث يختبئ "أبو سفيان الأنصاري" حتى اقتحموا الشقة بعدما كسروا بابها.. سادت حالة من الهرج والمرج المكان الذي كان يجتمع فيه "الأنصاري" وبعض من أفراد جماعته من بينهم "كريم الصفتي" ليخططوا للعمليات الإرهابية التالية التي سيقومون بها.. والتي من شأنها استهداف عدد من ضباط الداخلية في العديد من الأكمنة الأمنية..

حاول عدد من عناصر جماعة "الأنصاري" الفرار والاختباء داخل غرف الشقة في حين اشتبك عدد آخر منهم مع عناصر الأمن في محاولة يائسة للمقاومة وبدأوا في إطلاق أعيرة نارية من إحدى الغرف للزود عنه إلا أن القوة الأمنية بادلتهم إطلاق النار..

أصيب أحد المجندين بطلق ناري في ساقه.. مما أثار غضب "وليد" الذي كانت صورة "ماجد" وهو يرقد جثة هامدة على فراش المستشفى لا تزال منطبعة في ذاكرته.. فصوب مسدسه تجاه ذلك الشخص الذي أصاب المجند والذي كان لا يزال يعد سلاحه للتعامل مع بقية أفراد القوة الأمنية.. كان "الأنصاري" يقف خلف ذلك الشخص للاحتماء به عله يتمكن من القضاء على العناصر الأمنية التي تقف في مواجهة باب الشقة ليتمكن هو من الهرب.. وما أن لمحه "وليد" حتى عدل من وجهة مسدسه ليصوبه نحوه وتنطلق رصاصة منه مباشرة وتخترق رأسه لترديه قتيلا في الحال.. تم إلقاء القبض على أفراد المجموعة الذين استسلموا

بعد مصرع "الأنصاري".. كان هناك وجه من بين الوجوه يحدق في "وليد" وبعض أفراد القوة الأمنية يقيد يديه خلف ظهره.. ابتسم له "وليد" ابتسامة ساخرة وهو يصفعه بعينيه يقول له بنبرة يملؤها الغضب والتحدي..

- إيه بتشبه؟.. أيوه.. هو أنا يا صفتي.. كان لازم نتقابل تاني ما أنا شغلتي ظابط وأنت شغلتك إرهابي.. وكان لازم كمان تبقى نهايتك على إيدي..

اقتادت عناصر الأمن أفراد مجموعة "الأنصاري" إلى سيارة الشرطة المخصصة لترحيلهم إلى النيابة.. والتي كانت بصحبة سيارات الأمن المركزي أمام مدخل العمارة.. وتم إحراز الأسلحة التي عثر عليها مخزنة في إحدى الغرف.. كما تم العثور على مواد شديدة الانفجار والتي تستخدم في تصنيع القنابل البدائية..

أصدرت وزارة الداخلية بيانا إعلاميا يعلن عن القبض على عدد كبير من العناصر المتطرفة التي كانت تخطط للمشاركة في الثورة المسلحة يوم 28 نوفمبر.. وعن مصرع زعيم المجموعة "أبو سفيان الأنصاري".. وتوالت الأخبار عن حملات المداهمات المكثفة التي تشنها قوات الأمن على البؤر الإرهابية وإلقاء القبض على المتطرفين والمحرضين على الوطن..

في اليوم التالي كان "وليد" يقف أمام قبر "ماجد مرقس"..

"أنا أخدت لك حقك يا ماجد عشان تنام مرتاح.. وفيت بوعدي ليك عشان أنا كمان ارتاح"..

(33)

ككل ليالي الصحراء القاحلة كانت الليلة باردة وقاسية وما زاد من برودتها ذلك الوجوم الذي قابلت به "رفيف" رغبته في الزواج منها حين عرضه عليها وهو يراقصها في تلك الأمسية.. أجابه صمتها بما لم تستطع هي أن تبوح به.. كانت تعلم أنه يحبها.. ليس فقط لاعترافه بهذا الحب وإنما لذلك الاهتمام الذي يبديه لها دائما.. ولكنها لم تكن على استعداد بعد لتكرار تجربة الزواج المريرة..
كان ترغب أولا أن تستعيد نفسها.. أن تشفى من الماضي بكل ما يحمله من آثار ودمار.. أن تغسل روحها من همومها وأوجاعها.. وأن تتأكد أيضا من أن تلك المشاعر التي خفق بها قلبها ذات يوم لوليد لن تعود يوما وتطفو على سطح دقاته..

كانت ترى في "خالد" صديقا أو أبا أو أخا يمنحها الإحساس بالأمان تلجأ إليه عند

الحاجة.. تحادثه وقتما تشعر بأنها بحاجة للبوح بفائض وجع ما بداخلها.. لا زوجا يمتلكها بصك ملكية ويسجن داخلها بالوقت كل الكلام.. فلم تتحمل أن تراه في تلك الصورة التي عانت منها من قبل وهو الطيف الجميل الذي كان يرافق أوقاتها فيضيء عتمه ثوانيها بكلماته المرحة وبابتسامته الحانية كيف يمكن أن يتحول يوما لممارسة دور الحاكم المستبد على عرش حياتها.. إنه لم يخلق إلا لكي يكون حارسا لأمنها.. حاولت أن تفسر له مشاعرها.. جاهدت أن تشرح له كل هذا الصراع الذي يدور بداخلها ولكن خذلها صوتها.. خذلتها اللغة والمفردات. إلا أن عينيها أفصحت عما حاول قلبها أن يداريه..

ربما لو كانت التقته في بداية حياتها لكان الأمر اختلف.. فإننا لا تستطيع أن نحقق الاكتمال لغيرنا ونحن غير مكتملين.. وليس بإمكاننا أن نمنح السعادة لغيرنا في الوقت الذي سرقت فيه منا.. كانت تقدر حبه لها إلى الحد الذي خشيت عليه من انكساراتها وهزائمها السابقة.. فالحب قد يبقى على قيد الأمل طالما يحيا في ظل الحلم.. ولكنه حتما سيذبل إن شبت فيه حريق ظل ماضٍ ما زالت أشباحه تتجول في أيامها..

أما هو فبالرغم من ذلك الحب الذي ينبض بقلبه لها.. إلا أنه قد وعدها أن يبقيه بداخل قلبه لا يفصح له عنها كما وعدها أن يظل الصديق الذي يمكنها دائما الاعتماد عليه أو اللجوء إليه..

كان الهدوء يخيم على كل شيء حوله إلا من صخب أفكاره.. الذي علا عليه فجأة دوى انفجار هائل أحال ليل الصحراء الحالك إلى نهار.. فأسرع ناحية صوت الانفجار وهو يحمل بندقيته في يده.. كان الكمين الذي يبعد عن الوحدة بأمتار قد تحول إلى كتلة من اللهب.. ورمل الصحراء كان قد اكتسى باللون الأحمر القاني..

"الباقي من الزمن أقل من القليل.. يا نضيع من غير تمن يا نطول المستحيل "..

كتبت رفيف على صفحتها الشخصية على "فيس بوك".. تذكرت هذا المقطع من

آغنية للمطرب "علي الحجار" وهي تتصفح منشورات الأصدقاء التي تباينت حول يوم الثامن والعشرين من نوفمبر..

البعض انتابته حالة من الفزع وكأن العالم يعلن عن نهايته في هذا التاريخ والبعض الآخر بدا ساخرا متهكما من هذه الشرذمة التي تدعي أنها تناصر دين الله.. وأنها تعمل على نشر الإسلام في مصر.. وكأن قدم عمرو بن العاص ما وطأت أرضها يوما.. وكأن آل بيت رسول الله ما مروا عليها أبدا..

ظهرت نافذة لرسالة من "طارق منير" فجأة وهي تطالع المنشورات وتقرأ التعليقات..

- رفيف.. اطمني.. هنطول المستحيل.. ومصر محروسة ليوم الدين..

أرسلت إليه الرد وجها مبتسما يؤكد له أنها مطمئنة وواثقة من أن مصر ستهزم قوى الظلام والشر.. أردف قائلا..

- مصر في حالة حرب حقيقية يا رفيف.. حرب مع الخيانة وحرب مع الإرهاب.. لكن هننتصر على الإرهاب وهتحاسب الخونة..

- إمتى حساب الخونة؟ كلنا في انتظار اليوم اللي تتفتح فيه ملفات قضية الخيانة.. والخونة يتحاكموا على كل جرايمهم في حق البلد..

- هانت خلاص يا رفيف.. إن شاء الله مش هتخلص السنة دي من غير ما يبدأ حسابهم.. وخلاص قربنا كمان ننتهي من إخلاء المناطق كلها على الشريط الحدودي في سينا علشان الجيش يقدر يتعامل مع الإرهابيين بكامل قوته.. خصوصا بعد العملية الإرهابية اللي حصلت النهارده الفجر..

- حصل إيه أنا كنت بتابع الأخبار قبل ما تكلمني بس مقريتش أخبار لسه عنها.. الناس كلها بتتكلم عن يوم 28 وإيه ممكن يحصل فيه..

- إرهابيين فجروا كمين للجيش واستشهد في العملية 4 مجندين واتنين ظباط..

- الله يرحمهم ويرحم كل شهداء الوطن من الجيش والشرطة..

- هسيبك أنا دلوقتي عشان عندنا شغل كتير.. أنا بس حبيت أطمنك لما قريت البوست بتاعك.. اطمني.. مصر بخير وهتفضل بخير.. مصر فيها مخابرات صاحية لكل اللي بيتآمروا عليها وفيها كمان جيش بيحميها.. وفيها ناس بتحبها وبتخاف عليها زيك..

أحست براحة بثتها في نفسها كلماته.. خطر ببالها "خالد".. أرسلت له رسالة طلبت منه أن يطمئنها عليه.. بالرغم من أنه كان يظهر على صفحة الرسائل غير متصل إلا أنها كانت عادة ما تترك له رسالتها إلى أن يراها ويرسل لها الرد حين

يتمكن من ذلك في حين يكون في الاستراحة بعد الانتهاء من دورية الاستطلاع اليومية التي يقوم بها في الوحدة.. ولكن هذه المرة لم يكن في استطاعته أن يرسل لها الرد بعد عودته.. فهذه المرة لن يعود أبدا.. في حين كانت الأخبار عن تلك العملية الإرهابية في سيناء قد بدأت تتواتر وتنتشر على "فيس بوك" ولكنها كانت لا تزال أخبارا مختصرة..

(35)

كان "كريم الصفتي" يجلس منكس الرأس أمام الضابط الذي يباشر معه التحقيقات.. والذي كان قد واجهه بالمعلومات التي كانت قد وردت إليه عن ذلك الاجتماع الذي تم مع "سعد التهامي".. مما جعل إنكاره لأي من التهم الموجهة إليه أمرا مستحيلا..

أدلى "كريم" باعترافاته كاملة عن ذلك الاجتماع وعن تفاصيل صفقات الأسلحة التي تسلمها "أبو سفيان الأنصاري" وأيضا التي لم يتم تسليمها بعد.. كان وكيل النيابة يستمع إليه باهتمام وإنصات في الوقت الذي كان سكرتير النيابة يدون كل ما يدلي به من أقوال في المحضر الرسمي للقضية..

استغرقت التحقيقات مع "كريم الصفتي" وباقي عناصر المجموعة التي تم إلقاء القبض عليها معه ما يقارب من خمس ساعات متواصلة.. إلى أن انتهوا جميعا من الإدلاء بأقوالهم فأمر وكيل النيابة بحبسهم جميعا على ذمة القضية.. ثم أصدر أيضا أمرا بإحضار رجل الأعمال "سعد التهامي" للتحقيق معه فيما هو منسوب إليه من اتهامات تفيد تورطه في القضية التي أدرجتها النيابة من ضمن قضايا الإرهاب..

وفي مساء تلك الليلة اتجهت قوة أمنية إلى منزل "سعد التهامي" لإلقاء القبض عليه.. تناقلت القنوات الفضائية والصحف الخبر على الفور والذي كان مادة دسمة يمكن أن تقتات عليها البرامج الحوارية وتجترها الصحف اليومية لأسابيع طويلة..

"إلقاء القبض على رجل الأعمال وعضو البرلمان الأسبق سعد التهامي بتهمة تمويل الجماعات الإرهابية ودعمها بالسلاح "..

وقع الخبر على رؤوس البعض كالصاعقة لتورطهم في علاقات أعمال مشبوهة معه.. بينما الغالبية العظمى من الشعب فقد تلقت الخبر بفرحة عارمة بدت واضحة في المنشورات التي أسرع مستخدمو "فيس بوك" بكتابتها مهنئين الوطن وبعضهم البعض بالخلاص من أحد رموز الفساد في مصر..

كانت الساعة تجاوزت العاشرة والنصف بقليل عندما رن هاتف "وليد".. وهو يشاهد نشرة الأخبار في تليفزيون غرفة نومه.. والتي كانت قد أعلنت لتوها عن خبر إلقاء القبض على "سعد التهامي".. وإذا بشاشته تضيء باسم "سحر".. أدرك على الفور سبب اتصالها به.. وما أن فتح الخط حتى جاءها صوتها كسيرا

وهي تنتشج..

- إلحقني يا وليد.. البوليس قبض على دادي.. خدوه على النيابة.. كلم حد من معارفك في الداخلية أكيد فيه حاجة غلط..

- إهدي يا سحر.. للأسف مافيش حاجة غلط.. أبوكي فعلا متهم في قضية كبيرة وفيه أدلة ضده تدينه كمان..

- يعني إيه يا وليد.. هتسيبه يتسجن؟!

قاطعها وهو يحاول الضغط على أعصابه مراعاة لما تمر به من موقف عصيب..

- يعني عايزاني أعمل إيه يا سحر؟ أروح أقولهم سيبوه عشان ده أبو طليقتي!! بقولك أبوكي مدان وفيه أدلة ضده..

- أنا عارفة إنك بتكرهه يا وليد.. ومش بعيد تكون أنت اللي ورا الموضوع ده كله..

- إيه يا سحر اللي بتقوليه ده؟ هكون ورا الموضوع ده إزاي؟ ملفق له التهمة يعني؟ مابلاش استفزاز.. أبوكي هو اللي طول عمره فاسد ودلوقتي بيمول الإرهاب.. عارفة يعني إيه الإرهاب يعني قنبلة ممكن تنفجر في أي مكان وممكن ابنك يكون واحد من اللي يموتوا في التفجير..

شهقت "سحر" شهقة عالية حين تخيلت أن يكون "شادي" أحد ضحايا الإرهاب.. وارتفع صوت بكائها.. قبل أن تنهي حديثها الهاتفي معه..

ظل "وليد" بعده يجلس في مكانه ساهما لا يلوي على شيء، ولا يستطيع أن يحدد مشاعره وكأنه أصبح كيانا صامتا من الفراغ.. أطفأ التليفزيون ونور الغرفة ليغرق في ظلام دامس من الأفكار والذكريات..

(36)

كان صباحا هادئا في شوارع مصر بعد أن انتشرت مدرعات الجيش في الميادين الرئيسية وعلى الطرق الدائرية لتأمينها استعدادا لليوم المشهود ومنعا لأي عناصر متطرفة من الوصول إليها..

لم يزد الحادث الإرهابي الجديد الذي وقع في سيناء الشعب إلا إصرارا على القضاء على الإرهاب والتطرف.. فاتشح "فيس بوك" في اليوم التالي له باللون الأسود حدادا على شهدائه.. كانت منشوراته قد خلعت ثوب السخرية والتهكم من يوم الجمعة 28 نوفمبر وارتدت زي المعركة.. معركة الصمود والتحدي.. معركة الوجود التي يخوضها الوطن.

"لا صوت يعلو فوق صوت الوطن"..

بدأت رفيف الساعات الأولى لجولتها الصباحية على "فيس بوك" بهذا المنشور.. قبل أن تتجول بين منشورات الأصدقاء وبين الأخبار التي تنقلها بعض الصفحات.. تناقلت بعض الصفحات صورا لتلك لأخبار انتشار الجيش في الشوارع والميادين لطمأنة الشعب وتأكيدا للمتطرفين أن الأجهزة الأمنية لن تتهاون معهم إذا ما حاولوا تهديد أمن الوطن والمواطنين.. فقد كانت تحذيرات الجيش والشرطة واضحة لكل من تسول له نفسه بالعبث بسلامة الوطن،

أحست رفيف بارتياح وهي تقرأ تلك الأخبار.. وفجأة تسمرت عيناها أمام صورة مرفقة بخبر كان منشورا منذ ساعات مضت على إحدى الصفحات عن العملية الإرهابية الأخيرة التي حدثت في سيناء.. ارتفع صوت دقات قلبها يعلن عن صرخة مكتومة وهي تدقق في الصورة وتقرأ اسم صاحبها في تلك السطور التي تنعيه شهيدا للواجب..

"مقدم خالد يحيى الذي استشهد وهو يصد هجمات بعض العناصر الإرهابية عن وحدته العسكرية في حادثة التفجير الأخيرة التي وقعت في شمال سيناء"..

لم تتمالك رفيف دموعها التي هطلت كأمطار رعدية في ليلة شتاء شديدة البرودة.. أحست أن الحياة تنسحب منها تفر بحثا عنه هناك في تلك البقعة التي رواها بدمائه لكي تزهر حلما في عيون من يتطلعون إلى وطن بلا إرهاب وبلا خيانة.. بلا دموع ثكلى تنعي أحبابا فارقوها بلا عودة...
استعادت صوته وهو يقول لها بنبرة هادئة حانية واثقة.. "لو عشت هعيش علشان أحبك وأحميكي.. ولو مت هموت وأنا بدافع عنك وبفديكي"..

لم تكن تدري وهو يقول لها تلك الكلمات أكان يعنيها هي أم كان يعني مصر بما قاله لها.. ما من فارق الآن.. لقد غادرها كما غادر الوطن وقلبه ينبض بحبهما معا.. ودماؤه تجري على رمل الصحراء ليفديهما سويا.. مات هو لكي يبقى قلب الوطن نابضا بالحياة وبالحب ولكي يحيا قلبها نابضا بذكراه..

ما من كلمات يمكنها أن تنعيه بها.. ما من مفردات باستطاعتها أن تكتبها عنه وإليه.. فإن فاجعتنا الحقيقية ليست في موت أحدهم ولكنها في ذلك الشعور باليتم الذي يخلفه في قلبنا وروحنا بعد رحيله..

كم كان محقا ذلك العجوز الذي صادفته في تلك الأمسية البعيدة والذي قرأ قدرها المحتوم في عينيها.. إن الحب قدرها وأن الفراق هو دائما محطتها الأخيرة..

أيقظ خبر استشهاد خالد بداخلها ذلك الوجع القديم الذي أبقته لسنوات مدفونا في أعماقها.. إن الوداع دائما لهو المحطة الأخيرة التي تقف على رصيف انتظارها وحيدة.. فما أصعب تمني ما لن يتحقق وما أقسى انتظار من لن يعود.. هل تنعي من رحلوا أم تنعي قلبها الذي يأبى أن يتوقف نبضه عن حلم مستحيل..

كانت لا تزال غارقة في دموعها وفي ذكرياتها حين رن هاتفها المحمول.. كانت الشاشة تضيء باسم "حازم صقر".. أجابته بدموعها.. لتلقي على كاهله أعباء روحها.. كان يستمع إليها صامتا ذلك الصمت الذي يقف أمام رهبة الموت إجلالا.. كان يهاتفها لإبلاغها عن قرب موعد إذاعة أولى حلقات برنامجه التليفزيوني الذي سيكشف فيه للشعب كل الحقائق عن جميع من تآمروا عليه بلا مواربة أو استثناءات.. وأكد لها أنهم لن يفلتوا من الحساب على ما اقترفوه في حق الوطن من خيانات. ووعدها باسترداد حق الوطن وحق "خالد" وجميع من استشهدوا فداء له.

(37)

سويعات قليلة وتشرق شمس يوم الثامن والعشرين من نوفمبر.. كانت تلك السويعات كافية لتقدم فيها الأجهزة الأمنية للوطن هديتها الثمينة.. حيث أحبطت عملية كبيرة لتسليم أسلحة لعناصر متطرفة في سيناء.. تلك التي كان "سعد التهامي" قد اتفق عليها مع "كريم الصفتي" أثناء اجتماعهما الأخير.. كما أعلن الجيش تمكنه من القبض على جميع العناصر الإرهابية التي تسللت إلى الحدود آنذاك..

طلعت شمس الوطن في ذلك النهار على يوم لا يماثله في هدوئه أي من الأيام التي سبقته.. فانتصرت إرادة الشعب هذه المرة أيضا كما انتصرت من قبل يوم أن أعلنت رفضها لحكم جاسوس إرهابي اغتصب السلطة في مصر في غفلة من التاريخ ومن المنطق..

ومع مغيب شمس ذلك اليوم الموعود أشرق في النفوس أمل جديد باستعادة ابتسامة الوطن السليبة من مختطفيها.. جاء حكم براءة الداخلية المصرية من تهمة قتل متظاهري يناير 2011 صفعة أخرى على وجه المتآمرين على الوطن..

والذين قتلوا آبناءه ليتاجروا بدمائهم في مزاد الخيانة العلني..

أطل ديسمبر بأمطاره الحنونة.. واغتسلت شوارع الوطن في ذلك النهار الذي عادت الشمس تشرق فيه من جديد في حين كانت أرواح شهدائه تطل عليه من السماء لتشهد ميلاده الجديد..

كانت الساعة تشير إلى الواحدة ظهرا حين وصل "وليد" إلى منزل أسرته يرافقه "شادي".. سارا معا في اتجاه المنزل و"وليد" يحتضن يد صغيره بإحدى يديه.. وباليد الأخرى يحمل حقيبة صغيرة أعدتها "سحر" لمبيته بضعة أيام مع جدته وعمته.. كانت "مروة" في تلك الأثناء خارجة من مدخل عمارتها تجر حقيبة سفر.. التقت عيناها عين "وليد".. في ذات المكان الذي التقته فيه من سنوات.. مد إليها يده ليصافحها.. منحته يدها علها تستمد من لمسة يديه دفئا ترتديه معطفا في الليالي الباردة التي تنتظرها في غربتها.. والتي لم تعد تبالي بوضع حد لنهايتها.. أخبرته أنها في طريقها إلى المطار للعودة إلى لندن لإدارة شركاتها هناك التي كان "عدنان" قد نقل ملكيتها إليها قبل وفاته..

طبعت قبلة حانية على خد الصغير الذي تمنت لو أنه ابنها من هذا الرجل الذي يحتضن يدها .وسرعان ما سحبت يدها من يده خشية أن يعلن قلبها التمرد على قرارها بالرحيل إن ظل كفها ينام في حضن كفه أكثر من ذلك.. ثم غادرت مسرعة للحاق بموعد الطائرة..

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء موعد أولى حلقات البرنامج التليفزيوني الذي كانت جموع الشعب في انتظاره والذي يعرض من خلاله "حازم صقر" حقيقة المؤامرة على الوطن صوتا وصورة ويسقط فيه عن كل الوجوه الخائنة أقنعتها الزائفة.. واختار أن ينهي أولى حلقات برنامجه بعبارة اختارها لتكون العبارة الختامية في كل حلقة.. "تصبحون على وطن".. تلك العبارة التي اعتادت "رفيف" أن تكتبها كل ليلة على صفحة "فيس بوك" الخاصة بها كل ليلة قبل أن تخلد إلى نوم تحلم فيه ببقاء الوطن سالما..

ارتسمت ابتسامة مشرقة على وجه "رفيف" وهي تستمع إلى صوت "حازم" العميق وهو يترنم بأمنيتها الغالية.. في الوقت الذي كانت هي قد قررت أن تخط سطور روايتها الأولى لتنفض على صفحاتها غبار ذلك الوجع المزمن العالق بروحها منذ ثلاثة سنوات غابت فيها ابتسامة القمر عن أحلامها.. كان الوقت قد حان بالنسبة إليها لتتخلص من فائض الحزن بداخلها ومن ذكريات كل حكايات الحب المبتورة.. بعد أن بدأ الوطن يسترد عافيته من جديد.. وبعد أن اطمأنت أنه يسير بخطى ثابتة نحو انتصاره في حربه مع الخيانة والإرهاب.. وقبل أن تغيب في رحلة طويلة مع ذكرياتها.. كتبت منشورها الأخير على "فيس بوك"..

"وما زلت أحلم بوطن بلا فساد أو خيانة، ولن أكف عن التمني"..

رفيف سليم